نسائم السعادة

اســــم الكتـــــاب: نســــــــائم الســــــــعادة

التــأليـــــــــــف: ممـــــــدوح حســــــب الله

مراجعة وإخـراج فنـي: سالم عبد المعـز سـواح (عمـرو سـواح)

رقـــــم الإيـــــداع: 2021 / 21111

الترقـــيم الـــدولي: 978-977-835-260-3

النـــــــــــاشر: دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر

Facebook

Email za7ma-kotab@hotmail.com

Tel 002 01205100596
002 01100662595

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار زحمة كُتَّاب للنشر

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

نسائم السعادة

الكاتب

ممدوح حسب اللّه

٢٠٢١

فهرس

الإهداء ٩

المقدمة ١١

من الصفر..... ١٣

ما قبل الرحلة ١٥

الحُب ١٩

معرفة..... ٢٥

دعوة من الحبيب الأعلى! ٣٠

نسائم السعادة..... ٣٤

السعادة!..... ٣٨

الأخذ بالأسباب..... ٥٣

الشرك الخفي..... ٦٥
عبادة السعادة..... ٧٠
غاية الإسلام ٨٢
موعد مع بيت الرسول!..... ٨٦
نَشْكُرُهُ فيشكُرُنَا! ٩١
الأمن والأمان!..... ٩٧
لُغَة! ١٠٣
مدرسة رسول الله.....١٠٩
أعشاب الحياة الضارة! ١١٢
عالم الأذكار والأنوار ١٢٢
بَسْمَة! ١٣٣
مع النبي.....١٣٦
في رحاب الصلاة.....١٤٢
رحلة إلى السماء السابعة! ١٥٠
رحلة مع القرآن.....١٥٧

يا رب ومعجزتي!.. .....١٦٢
هدية القرب للقرب!.....١٦٥
عيش في ظلال القرآن.....١٦٩
ما بعد التعايش!.....١٧٣
نعيم أهل القرآن في الدارين! ١٧٨
الخاتمة ١٨٣

الإهداء

إلى والديّ الكريمين اللّذين حافظا على الصلة الروحانية بينهما وبين الله، فاجتمعا على محبة الله وتفرّقا عليه.

إلى الوالد المتوفيّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- لم تغب يومًا عن عقلي فالبطل يبقى بطلًا وإن غاب في بداية القافلة عن عيني.

إلى الوالدة الحبيبة -حَفظها الله- التي علمتني أبجديات الحروف وينابيعها الصافية حتى أتممتُ على يديها نعمة القرآن الكريم التي اجتمعا والديّ على محبتها.

أُهدي لكما يا والديّ هذا الكتاب.. رجاءً أن ينفع الله به.

والله أعلم بالسرائر.

المقدمة

الحمد لله الذي وفقنا لأداء أفضل الطاعات، وبارك لنا في الحسنات، وباعد بيننا وبين السيئات، والصلاة والسلام على نبينا محمد المؤيّد بأفضل المعجزات والآيات..

أما بعد..

فهذه كلمات استخلصتُها جَرَاءَ فَهمي للسعادة التي تتجدّد يوميًّا من العبادات التي مَنّها عليَّ المنّان سبحانه، لنتجه بها إلى سعادتنا حول معرفة الله من الطاعات اليوميّة التي ينبغي على المؤمن أن يُجاهد نفسه على فعلها حتى يتعلق قلبًا وقالبًا بالله.

فذلك الإحساس العميق بأننا لسنا وحدنا في الدنيا، وإنما نحن محاطون بمعيّة غيبية من الله سبحانه بها تكون سعادتنا، فذلك هو الاطمئنان بعبودية الله كأنك تراه في جميع أعمالك حتى تكون قريبًا منه سعيدًا به.

وما تبقى بعد ذلك من الحلال والحرام إنَّما هو تعبير صادق لتلامس أرواحنا بروح الله التي لا تراها الأنظار ولا تدركها الأبصار بقدر ما تستشعرها القلوب والأسرار.

فالله سبحانه لا يستفيد من عبادتنا، وإنّما يكون لصالحنا نحن؛ فهو الكبير المتعال سواء قُلنا: الله أكبر أم لم نقل، فإن عشنا على منهج "الله أكبر" في قلوبنا قبل أن تتأجج بها ألسنتنا عاد ذلك

بالنفع علينا بالخير من كرم الكبير المتعال، فحين يُكلفنا الله أمرًا فذلك لمَا فيه من الخير لنا، ثُمَّ يُعطينا عليه أجرًا إن قمنا به لنبقى معه على الدوام، وكأنَّها هدية المحبوب بعد الحب!

وإن ابتعدنا عن منهاج العبادة عندئذٍ نفقد معيّة الله التي تستشعرها القلوب المتعطشة لرحمة الله، فالعطش لِنَعَمِ الله يدلنا على وجود الله، والمتعطشون لا يريدون الارتواء بقدر ما هم بحاجة إلى الاطمئنان لعدم خسارة الماء!

فالجميل لا يُسأل عن أسباب الجمال، لأن أصل التدين فيمن يَرى، لا فيمن يُرى!

*****

من الصفر

قبل أن أشرع في محاولة سرد الكلمات، والوصول إلى الغايات، هنالك تساؤل دائمًا ما ماج وهاج بتفكيري: كيف يعيش المسلم وهو لا يعرف دينه؟ والذي لا يعرف أليس خليقٌ به أن يعرف؟

ما الذي يشغله حتى يتجاهل الوقوف ليتساءل: لماذا خلقه الله؟

وأشد ما زادني حزنًا على نفسي أنني مضيتُ سبعةَ عشرَ عامًا أتعلم فيها العلوم الدنيوية المختلفة.. بالطبع أعلم أن طلب العلوم فريضة، ولكن السؤال الأهم هنا: كيف أمكنني أن أقضي هذا العمر بأكمله ولم أقف ولو لمرة لأتعلم الدين نفسه!

الآن يمكنني أن أجلس بجوارك وأخبرك عن تفاعلات الحديد مع العناصر الكيميائية المختلفة، وأستطيع أن أشرح لك قوانين نيوتن للحركة، وباستطاعتي استنتاج المسقط الثالث في مادة الرسم الهندسي، وبإمكاني أن أحدثك عن التكاملات الرياضية، والبلاغة الأدبية، والقصص الإنجليزية..

ولكن، لماذا أنا مخلوق، وكيف أستطيع الرد على الشبهات التي تحوم بالإسلام والمسلمين، وهذه الأفكار المجنحة المجحفة المبنية على تضليل الناس، وماذا أفعل لو سألتني صغيرتي عن أحكام النون الساكنة في القرآن، أو معاني الفرقان؟

كانت إجابتي الدائمة: لا أعلم!

أليس من باب أولى أن أتعرف على ربي، وأن أتعلم ديني، لقد كان باستطاعتي أن أقضي الليل كله في الثانوية العامة أتعايش مع الكتب الدراسية على أنها حياتي!!

للمرة الأولى، أُريدُ أن أستعين بالحب على الحرب، وبالشوق على الشوك، وأيّما سَبَقَ أحدهما الآخر فلا عزاء للحرب!

للمرة الأخيرة، هنالك تساؤل واحد يُراودني:

ما الذي أحتاجه من الدنيا أهم من أن أتعرف على ربي؟!

*****

ما قبل الرحلة

ما قبل الرحلة كعابر سبيل يمرُّ بديار قلبك على عجلٍ، اليوم أراكَ للوهلة الأولى لأكتبَ لك ما جال بخاطري منذ أن بدأت التفكر في معية الله التي يكتسبها القلب من معرفته، بَدءًا بالسكينة والطمأنينة ومرورًا بزوال الفزع والجزع، ووصولًا إلى الوقوف بين يدي الرحمن ذليلًا له بجوارحه وساكنًا بأركانه.

هذه المعيّة الغيبية يا أصدقائي التي دائمًا أرى أثرها في لمعةِ هاتين العينين البراقتين لكتاب الله، وفي هذه الأيادي التي تهتز خشوعًا حين الوقوف بين يدي الله، فيُسعدني أنّ الله لا يردّ تلك الأيادي المتأرجحة المرفوعة إليه صفرًا، فأرى لطفه سبحانه في هذه البسمة الممنونة، وتلك النظرة المسموعة، وفي هذا البائع المتجول الذي لا يُفارقه رضاه، وهذه الطفلة الصغيرة التي أراها كلَّ حينٍ تجلس عند جامعتي في انتظار لعبِنَا سويًّا، وهذا الشيخ صاحب الصوت العذب الذي يُجلجل منبره كلَّ جُمعةٍ فتهتز له أركان القلوب ويستمع لصوته مجامع العقول، وهذا التاجر الذي أراه كلَّ حينٍ في صلاة الفجر تاركًا تجارته أمام المسجد للوقوف بين يدي مولاه طالبًا منه التوفيق، وتاركًا خَلْفَهُ كلَّ ما يملك مطمئنًا على ما يملك!

إنها مناجاة المعيَّة الإلهيَّة التي تتأجج في قلوب الصالحين، وكأنَّها شُحنات نورانيّة تشحذ قاطرة قلوبهم نحو الأوامر والنواهي الربانية بشوق واشتياق في زمنٍ عجعج فيه الفساد والإفساد..

فكثيرًا ما كنت أسأل عن السر وراء هذا العجوز الذي جعل قلبه وروحه للمسجد لا يفترقان! وهل ترون ذلك الفتى الذي لا يُحبُّ السبانخ وقد فاته تكبيرة الإحرام يكتب لكم كتابًا عن الحب بيننا وبين الله!

ألَا ترون أنَّها آثار المعيّة السماويّة التي تصنع أبطالًا يعبدون الله لأنهم يُحبونه، يُحبون الوقوف بين يديه لا عن قهر ولكن عن حب، فهم يعلمون أنَّ الله سبحانه لا يريد قوالبَ تخضع بل يريد قلوبًا تخشع، وهذه هي المحبة التي تتشعشع بين العبد ومولاه، حتى إذا وصل الحب إلى القلب عزَّ على العبد أن تمتد يده إلى المُحرَّمات، فهذا الشعور بداخله بمعيَّة الله يزرع في قلبه معاني الإيمان، ومِن ثمَّ يُغلق أمامه وساوس الشيطان، فلا يُعطيه فرصة يُشَوِّش بها عليه إلَّا وتمسَّك بمعية الرحمن.

وخذها قاعدة قبل أن تبدأ رحلتك مع هذا الكتاب:

إذا كان حب الله في قلبك عظيمًا كان إيمانك بمنهجه أعظم، وكان إقبالك على عبادته أنفع، وإذا كان حبك لله ضعيفًا لابتعدت عن منهجه بمقدار هذا الضعف والهلاك.

وأرجو أن تتفطن جيدًا أنّك لن تكتشف أسرار رحلتك إلى الله في هذا الكتاب إلَّا بكثرة مُصاحبته، فالصاحب مِنَّا لا يُخبر صاحبه بأسراره إلا بكثرة المُصاحبة فيختصه بمواهبه ودقائقه، وكذلك الحال في هذا الكتاب فمع نهايته إن شاء الله ستجد نفسك قد اكتشفت خفايا السعادة الملتئمة بالقلوب التي يملؤها الحب والوفاء، وزاداها معيَّة السماء.

ولذلك سألت الله العون والتوفيق أن يعينني على كتابة هذا الكتاب الذي أسميته **«نسائم السعادة»** ليفتح لكَ آفاقًا واسعة لتستنبط منهجًا سويًّا للحياة الكريمة في ظل السيرة النبوية التي ملكت شِغاف القلوب ونواصي العقول كضوء الشمس ألَقًا، ووضوحًا، وبهجة.

واعلم أنَّ هذا الكتاب لا يتعلق بالسعادة بقدر ما هو مُتعلق بقلبك، فقد جاهدت نفسي على ذكر كل ما هو ذات نفعٍ لقلبك، ولقد كتبتُ فيه كلّ ما يتعلق بأحوال الشباب خاصة الذين يتيهون ولا ينتبهون، عسى أن يتشعشع في قلوبهم نور المنَّان، ويترعرع على أرواحهم معيَّة الرحمن، لعلهم يفيقون من غفلتهم، ويستيقظون قبل حسرتهم، وفيه من النفع إن شاء الله لشبابنا المسلم، فاحرص عليه وفَّقكَ الله.

ولقد قسمت الكتاب على بابين هما أساس السعادة والرضا جَرَاءَ فهمي لعبادة الله.

-الباب الأول: كيفية التوازن بين الدين والدنيا، واكتساب محبة الله سبحانه؛ ولذلك كانت بدايتي مع الكتاب قصة الحب التي صنعت أبطالًا حول الرسول، ومِن ثمَّ تحدثت بعدها عن مفاهيم دينية كثيرة يحتاجها شبابنا لكثرة الحديث المغلوط عنها وما يترتب على ذلك من الضياع مُستعينًا بفهمي لكتاب الله وسُنَّة رسوله الكريم.

-الباب الثاني وهو الأحبُّ إلى قلبي وأرجو من الله أن يُلامس قلبك، وهو حديثي حول العبادات التي تجعل روحي الضعيفة متصلة على الدوام بروح خالقي سبحانه، وهو السبب في جعلي إنسان غرضه الأساسي من الحياة هي إنسانيّة الإنسان! وذاك الباب هو إجابتي لسؤال صديقي لي يومًا على سبيل المُداعبة: لماذا لا تكتئب؟!!

ولا أقول إلا كما قال سيدنا شعيب -عليه السلام- لقومه كما حكى القرآن لنا:

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود: ٨٨]

والله أسأل أن ينفعني وإياكم بتلك الكلمات في يوم اللقاء، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، عسانا أن ندخل الجنَّة مع الصالحين.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

*****

الحُب

كانت مكَّةُ في الجاهليةِ تحويها تيه الوحشة والضياع، يتقَلَّب فيها القُرَشيونَ رجالًا، ونساءً.. شيوخًا، وشبابًا.. ولا يفقهون شيئا اسمه الحُب في الله ومن الله..

وذات يومٍ دقت ساعة الأقدار، مُعلنة ميلادًا جديدًا لمكة المكرمة، كنست ما ورَّثته الجاهلية اللاهبة من ظلام وزيْف، وبدأت تُشرق على مكة شمس جديدة بعدما مالت شمسها للمغيب، وأَخذ يدور في أفلاكها كواكب تكشف عن إنسانيّة الدين كضوء الشمس نارًا ونورًا.

فمن اليوم.. لا عُزَّى.. ولا لات.. ولا هُبَل.

لقد جاء الحقُّ، وزهق الباطل، ودخل الناس في دين الله أفواجًا بِمَا عَرَفوا مِن الحق، وعن الحق الذي ليس كمثله شيء، الواحد الأحد الكبير المُتعال.

ولم يمض غير وقت وجيز، حتى انتعشت أفئدتهم بنسمات الريحان هَبَّت عليهم هبوب الإيمان، ونزلت بهم بشائر الإتقان، حتى أصبحت أرواحهم تفهم معاني الحب بعد أن كان لغةً لا تُفك رموزها! فما كان الحب بقيام روحٍ جدباء لا زرعَ فيها ولا ماء، وإنما بقيام روحٍ ابتهلت بما جاءهم مِن عند الله من دين قويم يُلغي الإنسانيّة الفاسدة وينشئ مكانها إنسانية عادلة، حاملًا بين ثناياه شوق العابدين، لا يضرهم كيدُ الخائنين ولا تدبير الماكرين.

هذا الحب الديني الذي جعل من بلال بن رباح -رضي الله عنه- عبدًا يروح وسط شُوَيْهات سيده وماشيته، إلى مؤذّن الرسول الذي لا تجد الآن قطعة من الأرض يقطنها المسلمون إلا ويثنون عليه ويمدحونه.

هذه المحبوبية بعد الحب التي جعلت من أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» يحمل على كتفيه جراب دقيق، ووعاء السمن ليدرك خَيمة وَقَفَت على أولّ المدينة حيث تتولى زوجته أمر السيدة التي أدركتها المخاض، ويتولى عمر إعداد الطعام!

هذا الحب الإلهي في كلماتٍ كُلها نور من عمر بن الخطاب كَتَبَها لسعد بن أبي وقاص حينما ولَّاه على قيادة الجيش ليوم القادسية.. «يا سعد بن أهيب: لا يَغُرَّنك من الله، إن قيل: خالُ رسول الله وصاحِبه؛ فإن الله ليس بينه وبين أحدٍ نَسَبٌ إلَّا بطاعته.. والناسُ شريفُهم ووضيعهم في ذات الله سواء.. الله ربهم، وهم عِبَادُه.. يتفاضلون بالعافية، ويُدْركون ما عند الله بالطاعة».

هذا هو الحب الذي نَزَلَ عليهم من الرحمن، فجعلهم يَحُفُّون حول العبادات مُلتمسين منها رحيق المحبة كما تحفُّ أفواج النحل بالأزاهير ترتشف منها الرحيق، إنها نسائم الإيمان التي هدَّمت الطَّبقيَّة الظَّالمة، وأبطلت التَّمايز الكاذب.

فلقد رأى أصحاب رسول الله العبادات شوقًا منهم للاتصال مع هذا الخالق الكبير المتعال، فمهما يَعِشْ المرء منهم فإنه لن يجد بين يديه يوم القيامة إلا ما عمل من خير، أو ما عمل من شر.

هكذا علّمهم مُعلّم البشر -عليه أزكى السلام- فتَهلّلت وجوههم بأداء فرائض الصلاة، وقراءة القرآن، فزادهم الله من مناصب الحب ما لا عين رأت من قبل، ولا سمعت عنها أذن، ولا حتى خطر على قلب بشر، فلا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالعمل الصالح، وليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلَّا بالتقوى! فازدادوا تَقربًا وشوقًا، فازداد الله قربًا وعطاءً، وبادلهم شوقًا بشوق، وقربًا بقرب.

وسرعان ما سَمعَ أصحاب رسول الله ذلك حتى تسابقوا في وضعِ أنفسهم بالعبادات حيثُ وَضَعهم الله سبحانه لينالوا بتقواهم خَيْرَي الدنيا والآخرة، فما ذاقوا هكذا لذةَ حبٍّ أنارت على قلوبهم بالشوق من قبل! وما هي إلا أيام قلائل بعدما عَرَفوا الله حتى سارع أصحاب رسول الله يتحسسون العبادات المُتَنفِّسَة لأرواحهم، والأحب إلى محبوبهم، تلاوة القرآن والصلاة، أم صلة الرَّحم والصدقة، أم أنها الذكر وإماطة الأذى عن الطريق، ويتسارعون يجبرون الخواطر، ويجيرون الضعيف، ويحلِبُون بِيَديهم شِياهَ الأيَامى، ويعجنون بأيديهم خبز اليتامى!

وبين هذا وذاك، وبعد هذا وذاك..

لقد رأَوْا الحبّ يَشع عليهم بالأمل في حديث نبيهم محمد: «أحبُ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»

أخرجه البخاري (٦٤٦٥)، ومسلم (٧٨٣).

حتى امتلأت أفئدتهم المؤمنة بِشرًا، وابتهلَتْ حمدًا لربها وشكرًا.

وتعالوا نذهب في جولةٍ من الظلمات إلى النور في قصةٍ تشعشعت فيها رحمة الله الواسعة حين فتحت أبواب الحب رجاءها في قلب «أبو سفيان بن الحارث» ابن عم رسول الله بعد أن قضى عشرين عامًا في عداوة موصولة للإسلام! وذات يومٍ أخذ أبو سفيان ابنه جعفر وركب دابته يطويها طيَّ التائبين، مُعلنًا ميلادًا جديدًا بين يدي رسول الله أعظم المخلوقين.

وتعالوا ننتقل بعيدًا إلى غزوة حُنين، بعدما ظن الجيش أنَّهم لن يُغلبوا اليوم من قِلة، وما هي إلا قلائل حتى ولَّى أكثر الجيش المسلم الأدبار! وتعالوا نُلفت الأنظار إلى من يمسك بلجام فرس رسول الله بيسراه، ضاربًا في نحور المشركين بيمناه! إنه أبو سفيان بن الحارث الذي لم يمر على إسلامه القليل، ها هو الآن يُسابق الزمان مُجاهدًا ليمحو ما كان عليه من آثار الجاهلية البلهاء!

فينظر إليه الرسول مُعبرًا عن امتنانه وحبه: «أَخي أبو سفيان بن الحارث؟».. يحكي لنا أبو سفيان عظمة هذا المشهد في قلبه فراح يُردد بكل فرحة وسرور:

لَقَد عَلِمَتْ أفناءَ كعبٍ وعامرٍ.. غَداةَ حنين حين عَمَّ التَّضَعْضُعُ

بأني أخو الهيجاء أركب حدَّها.. أمامَ رسول الله لا أَتَتَعْتَعُ

رجاءَ ثوابِ الله والله واسع.. إليه تعالى كل أمر سيرجعُ

قصة أبو سفيان هذه تمثل كل نسائم الحب بعد الكراهية، وكأنها التضحية لا تولد إلا من رحم الحب، هذه القصة لخصها أبو سُفيان في قوله وهو على فراش الموت وأهله من حوله يبكون: «لا تبْكُوا عَلَيَّ، فإني لم أَتَنطَّفْ بخطيئة منذ أَسلمت!»

والله إننا لمساكين! إذ لم يبلغ من معاني الحب لدينا حدود الدنيا الفانية، في حين غفلة قلوبنا عن معاني اللقاء الأبدي بيننا وبين خالقنا في الآخرة الباقية..

ولنترك شيوخنا الأفاضل في رحابهم آمنين مُطمئنين، فلقد وَجدوا ما وعدهم الله حقًّا، وظلّت سيرتهم المباركة تعيش مع الحياة إلى ما شاء الله لها أن تعيش، وكأنها الحياة هي من تستبرك بسيرتهم المؤمنة!

ولنذهب بعيدًا أجيالًا وأجيالًا إلى قلوبنا لنتحدث معها قليلًا...

فهل تأذن أيها العبد بالدخول؟

السلام عليك أيُّها القلب ورحمة الله وبركاته..

هل تأذن لي ببعض الأسئلة؟

ألاَ تَشتاق لرؤية الله أيها القلب؟

ألَا تَشتاق أن ترى مَن ذا الذي ملء قلبك بعشب الإيمان وثماره، مَن دبَّرَ معيشتك، مَن آنَسَ وَحشَتك، مَن فَكَّ كُربَتك، مَن سَمعَ خشيتك، مَن قَبَلَ توبتك، مَن سَهَّلَ سجدتك، مَن حفظَ سنهَتك؟

أَلَا تشتاق في الدنيا أن تنال لذة العابدين، وإيمان الصالحين، ومحبة الله رب العالمين؟

ألا تشتاق إلى الحب، فإنَّ كل ما نسعى إليه في رحلتنا إلى الله هو الحب.

فتعالى نقترب في ثبوت ومحبة مما أنعمه علينا الرحمن في رحلتنا مع قافلة السائرين على منهاج الله، فإن البعيدين عن الحب بعيدون عن الحياة، لأن الأصل فيها هو الحب، فنحن في زمان افتقد الناسُ فيه الوازعَ والرادعَ، حتى قلَّت الطُّرق، وكثرت الفتن، فكم نحتاج إلى مَن يُحيي القضية الإيمانية بداخلنا، إلى صديقٍ نستأنس به رحلتنا لا عن خوفٍ بشوكٍ ولكن عن حبٍ بشوق!

فَاجْعَل نَصِيبَكَ مِن حبٍّ تُغازله..

وحبُّ اللَّه بِه نسمو ونبتهلُ

مَا أشرقَ الْحَبُّ إلَّا واللهُ مُشْرِقهُ..

رباهُ لكَ الحمدُ كَم أوليتَنا حُبًّا فَنَبْتَهِل

*****

معرفة

أثناءَ سيرِكَ في الحياة مُستمطرًا بأمطار الركائز التي تستعين بها على تحقيق مطالبك في الدنيا، وأهدافك في الآخرة، قد تفقد البُوصْلَة أحيانا تائِهًا مع غوغاء السكارى الشاردين في جحيم الضياع حيث مَلَك الشك شِغَافَ قلوبهم، وعَشّشَ وباض وأَفْرَخَ في عقولهم، وربما يعتليك اللهث وراء مَشَقاتِ الدنيا وزينَتِها، فتنسى هدف السعي، فاقدًا علامات الطريق التي تُرشدك إلى الله، فتجد نفسك مُتجهًا إلى بلبَلة الفكر، وتيَه النفس، في زمنٍ عَجْعَجَ فيه الضلال والإضلال.

فشُدْ ثيابك إلى أعتابه مُرتديًا لونًا غير لونك لنقتبس معًا آثار معرفة الله في حَلنا وترحالنا، فنذق من كؤوس التعبد نورًا وسلامًا لأرواحنا، نورًا نُضيء به الأذكار في مجامع الأسرار في الدنيا، وسلامًا لملكات العقل في الآخرة، فلا يشغلنا عن حبه شاغل، ولا يردنا عن محبوبنا باطل.

من دون الله أصبحنا نجهل كثيرًا من أمور ديننا ومناهجه التي جاءت لِتُعَبِّر عن كل وجهة يوليها مَن سَلَمت فطرته، فَصِرنَا نَهُشُّ ونَبُشُّ بما لا ينفعنا في ديننا ودنيانا، وأمسينا كالقطيع نميل حيث مالت بنا الريح، فأضحت نفوسنا مُهشَّشة، وقلوبنا مُجَفَّفَة حتى برحت سريعة الكسر، قليلة العلم، كثيرة الخوض في أعراض الناس، وباتت تسير وراء المظاهر الكاذبة حتى ابتعدنا عن روح الدين!

فما أضيق العيْش لولا آثار مَعرفة الله سبحانه ومحبته، فأينما كانَ المُحب مع الله وَجَدَ الأُنس والحياة، وحَمَلَ بين جنبيه غَريزة الناسكين يقوم الليل بلا ملل، ويصوم النهار بلا كلل.. ويا لربنا لطيف التقدير: كيف تتجدَّدُ نفسُ الواحدِ بالحياة كُلّما مَست روحه معرفة الله ومنَّتِه؟ فَمَنْ عَبَدَ الله مع العارفين؛ كان إقباله على عبادة الله بروح العاشقين، وهذا هو أساس الدين وروحه، فمَن ذاق المعرفة عاش لونًا من ألوان الجمال في الدنيا، وتذوقه بأكمله في الآخرة.

فمحبة الرحمن هي المعرفة الحقة التي تتغلغل في القلب وتنقذنا من كل الشهوات العاجلة؛ لا عن رياء ونفاق خارج النفس ولكن كالمحبة الإلهيّة التي تتشعشع في الأعماق وتصبح هي وهو شيئًا واحدًا لا يفترقان!

والحقُّ سبحانه حين شرع معرفته فإنَّما ليعود نفع ذلك على قلبك بالدفء، وذلك لأن الله يعلم طبيعة النفس البشرية وما تحتاجه في سفرها إليه سبحانه، فوضع لها ما يُعيد بناءها، وهيأ لها من الأسباب ما يجعلها أقرب إليه من حبل الوريد في الدّنيا، وحتى تتهلَّل إلى رؤيته في الآخرة.

وفي هذه الرحلة الدنيوية يُريكَ الله ما يملأ قلبك بالاطمئنان، فكما يهلّ المطر على الأرض الجدباء فتصيرُ مُخضّرة بفضل الله، كذلك تمنحنا معرفة الله سبحانه عالمًا في أعماقنا نجد فيه الأُنس والجمال، عالمٌ يُغنينا عن سوء المُنقَلَب، ويُعينِنا على طاعته

سبحانه، فلا نحزن إن فاتنا شيء من متاع الدنيا، فإن لنا حياة أخرى أفضل وأكرم، وهكذا قلب الإنسان تعتليه الزهور بمعرفة الله بعد أن اعتراه الذبول، ويتهيأ لسماع الصوت الداخلي بعد أن أصمّ آذانه صخب الحياة الخارجي.

ولنترك حديثنا لسيدنا مالك بن دينار -رَحِمَه الله- ولْنُصْغ إليه يُحدثنا بنفسه، فيقول: مساكين أهل الدنيا؛ خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل له وما أطيب ما فيها؟ قال: معرفة الله عزّ وجل ومحبته.

فيا هاربًا من دجى الدنيا وظلمتها، هنالك مِنهاجٌ للسير إلى الله، منهجٌ يشمل ما يحبه الله، فمن أراد سعادة الدنيا والآخرة فلا بد من تحقيق العبودية لله جلّ جلاله، والعبودية مُقترنة بمعرفة الحقّ سبحانه، ومعرفة الله مُقترنة بكثرة ذكره، وقراءة قرآنه، والإقبال على صلاته.

ثمَّ اعلم يا صديقي أنَّك في كل مكان تتجه فيه ثَمَّ وَجْهُ الله، فلله المشرق والمغرب شمالها وجنوبها، وكل جهة تفكر فيها، والواجب على الإنسان ألَّا يُضيّق على نفسه بمكان التقائه بالله، فليس المسجد فقط ميعادنُا مع الله في الدنيا! الله معك في لقاء إذا ذكرتَه، الله يُحسن إليك إذا أحسنت إلى عباده، الله يحبك إذا أحببته، الله معك في كل صغيرة وكبيرة؛ في كل ركعة تصليها أو آية تقرؤها أو صدقة تخرجها هي باختصار محاولة منك لتكون مع الله، ويكون الله معك.

يروي لنا الترمذي عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا استعملَه، فقيل: وكيف يستعملُه يا رسول الله؟ قال: يُوفقه لعمل صالح قبل الموت».

أخرجه الترمذي (٢١٤٢)، وابن حبان (٣٤١).

فجاهد نفسك على أن يكون إليك باب مع خالقك تعيش لأجله، جاهد نفسك مع هؤلاء الألوف المؤلفة الذين يجاهدون قسوة قلوبهم مع بزوغ ساعات العمر إلى لقاء الله، يكابدون الحياة في القراءة والصلاة والدعاء ولا يلتفتون إلى الإحباطات واللذات الغائبة، تجدهم يلتمسون خشوع القلب فلا يجدونه إلا قليلًا غيرَ أنهم يجاهدون، فيلتمسون عفو الله عن هذه السنوات العِجَاف التي أودتهم أُسارى في سجون الجفاف لعلّ حالهم يتبدل إلى سنوات سِمان بطاعة الله، فيلتمسون السنابل اليانعات عن هذه السنابل اليابسات.

فترجّل أيها العبد عن تيَه قلبك، فأحيانا لا يُفوتك معرفة الله ولكن يفوتك الانتباه لها، فلا تكن من العبادات مُفلسًا، ومن الطاعات خاليًا، فلا ينبغي أيها العابد أن تخرج من هذه الدنيا بِخُفَّي حُنَيْن!

فما أروعها حياتنا ونحن نحيا في كنف الله ورعايته، فنقرأ كتابه الكريم، ونستهل من سنة نبيه العظيم، ونحيا بفقه الدين، وقراءة أحوال عباده الصالحين، ونلتمع بمعيّة الله أحسن الخالقين، فنستمد عزمًا جليًّا في كل صغيرة وكبيرة.

فما أعظمها من أيامٍ تمضي، وسنين تذهب في طاعة الله وتجعل أرواحنا تقترب أكثر إلى نور الأنوار، فتمضي الأعوام في طاعة، وتتلذذ الروح بالعبادة، فنحن مع الله بكل جوارحنا في لقاء، حتى إذا أرَخَ الليلُ وغارت النجومُ، وسكنت الكواكبُ، وهدأت الجبالُ، أخذت قلوبنا في الاشتعال مُتهللة تهلّل العارفين لله رب العالمين.

نُورٌ لِلْأَرْوَاح بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ جلّ جَلَالُه..
وَهَل تُشرق الأرواحُ إلَّا بربِ الكون والأسبابِ؟

*****

دعوة من الحبيب الأعلى!

مَن أحبَّ الله كثيرًا، أطاع الله كثيرًا، مُلبيًا دعوته بقلبٍ مفطور على العبادات، لا بقلبٍ مأمور، فمن أحبَّ الله أَحَبَّ ما يُحبّه الله، واجتهد في فعل الطاعات من الصلاة وقراءة القرآن والذكر، حتى ينال بهم في الدنيا شرف القُرب من الله والأنس به، ويزدهر في قلبه حلاوة المناجاة كما تزدهر الزهور وتنمو في أرضٍ طيبة التربة لا يعتريها الذبول مهما تغيرت بها الأحوال.

فالحياة في أجواء العبادة ورحاب الطاعة تجعل الإنسان يستوحش الدنيا ويكره الركون إليها، في الوقت الذي يشتاق لرؤية وجه الرحمن، والجلوس بجوار النبي المصطفى العدنان، فإن العبادة شَعشَعت في قلبه التعايش للآخرة..

ومِن أصعب المشاعر حزنًا أن أغلبية شبابنا المسلم اليوم تائهون، هالكون بين شعاب الدنيا القاسية، وهموم الحياة المتتابعة، فلم ينالوا حظوظهم من الدنيا، بخلاف الذين يتمسكون بكتاب الله فاتبعوا مناهجه حتى صارت عبادتهم اشتياقًا إلى رؤية مالك يوم الدين.

لذلك كانت الدعوة من الله سبحانه للمُحبين إليه بالطاعات رحمةً مِنه إليهم، وفَرَضَ عليهم العبادات ليكون سببًا مُوصِلًا إلى حنانه ومنتّه، وحتى يكون العبد بالطاعات كثير الخيرات،

وبالعبادات عظيم البركات، كما هو الشأن في كل قلب يحمل محبة الرحمن.

يحكي لنا أبو هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إن الله قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

وهذا يذهب بنا بعيدًا إلى اطمئنان القلب الأبدي، فالله واحد في ذاته وصفاته، وفي قوته وقدرته، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ولا توجد مقارنة بين صفات الخالق سبحانه وبين صفات المخلوق، وكثيرًا ما أتعجب من هؤلاء الشباب الغافلين عن معاني الحي القيوم فيجعلون من أحلامهم بعيدة لأنهم يروها كذلك، ولا يرون أنّ وراء أحلامهم مَن بيده إمطار القلوب وسقياها، فالعطش إلى الأحلام يدل على وجود الأحلام، وعطشنا نحن المسلمون إلى ما وراء أحلامنا من محبة الله أعظم وأشد، فليست شقشقة لسان ولا خشخشت ألوان وحسب، وإنّما تحمل في طياتها معاني عظيمة تتأجَّج في القلوب السليمة بمعرفة الله جل جلاله، وهذا ما يجعل قلوبنا تلمع وسط عتمة الليل، فإنَّ الخالق العظيم سبحانه بجوارنا.

ففي سطوع شمسك، وظهور قمرك اجعل زادك حديث رسول الله ﷺ: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجدهُ تُجَاهك».

أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩).

ولهذا الحديث أثر عظيم في قلبي حين كانت والدتي تُعلّمني شرح الأحاديث النووية كانت هذه الكلمات شافيةً كافية، ومجزيةً مُغنية، فتأملها كما تأملتُها.. احفظ الله في نفسك وقلبك، وسيكون أمامك بحفظه ونصرته، احفظ أوامره وامتثلها، وانتهِ عن نواهيه وتجنبها، يحفظك الله في تقلباتك ودنياك وآخرتك، احفظه في أعمالك وأقوالك، يحفظك الله في نفسك وأهلك، اتجه إليه بأحلامك وتفكيرك وستجده أمامك يهديك إلى ينابيع الخير فإن القلوب لا تهدأ والنفوس لا تسكن إلا إذا وضعت أرواحها على عتبة مسبب الأسباب ﷻ.

فبالله عليك: لماذا تنتظر فتنة حتى تذهب لبابه، وجائحة تَرُدُّكَ لمسجده؟ ألا يستحق الله أن تذهب إليه معافًا في جسدك، آمنًا في سِربك؟ ألا يستحق أن تلتجئ إليه مع المحسنين؟

فأسرع وعدّل بوصلة قلبك باتجاه الله، واطلب منه سبحانه بقلبٍ صادقٍ ألَّا يُشْغَل عقلك بما يقلقك، ولا قلبك بما يُعذبك، ولا وقتك بما لا ينفعك، فإن اللطيف سبحانه يُقدّر لعباده التائبين من ألطافة الرحيمة ما يُقوِّم به عوج نفوسهم، ويهدي به ضال قلوبهم، ويُجَمِّل به شعثَ حياتهم.

فاللهم إنّا نشهد أنّا نُحبك، ونُحب من يُحبك، فارزقنا اللهم حبكَ، وحبّ مَن أحبك، وحبّ كل طاعة تقربنا إلى حبك.

*****

نسائم السعادة

تعلمتُ من علم الهندسة أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين، فاستقامة الطريق تُيسِّر الحركة فيه، وتقلِّل الوقت والمجهود، فإن عمَّ الانحراف وطمَّ تظهر علامات الطريق واضحة جلية لتأخذ بيدي إلى ينابيع بدايتي ونهايتي!

وكذلك الحال مع نسائم السعادة، فهي أنسام مُلازمة للعبد المُؤمن أينما هَلَّ وحَلَّ كانت له منهاجًا يشمل كل ما يحوطه من أسوار المحبة والرخاء!

فيا أيها الشارد عن قافلة السالكين، مُضربًا عن كل مجامع القلب: ما نَزَل في قلبٍ حيٍ مَعرفة الله إلا وهذَّبَت القيم الإنسانية بداخله، وأينما جاءت صُحبة الله ارتفعت قيمَةَ العبد، فيهل على قلبه البشائر، وتحف على روحه البصائر.

وتشدّني نظرة رسول الله إلى نسائم السعادة.. فكان نبينا محمد بسّامًا ضَحوكًا، بسيطًا يلاطف الناس، رحيمًا ينثر ابتسامته في قلوب السائرين على منهاج الله، جميلًا ينشر الدين الإسلامي في أفئدة السالكين طريق الله، فأشرقت من حولهم أطياف الإيمان، ورسموا بقوافيهم ما يعجز عن رسمه الألوان، وانبجست منهم إشعاعات من نور معرفة الله تَلقاها كلّ من شاركوهم قافلة الحياة، فكانوا لهم كلَّ الحياة.. فنسائم السعادة مَست أرواحهم لمجرد

شعورهم بمعيّة الله مِن حولهم، معيّة أشرقت على الأرض بإشراقات لم يفهمها الكوكب بعد!

فهنا ابتسامة برائحة المطر، وبجمال الغيوم، وبنسائم الملائكة بدلًا من همزات الشياطين، وهنا سعادة بروح القرآن، وبهجة الإيمان حتى تبعثرت هشيم الجاهلية في صحراء النسيان، واقتربت من أرواحهم عاصفة خفيفة مُحملة بسحائب رحمة الله كنست بها رمال الصحراء الجدباء.

فنجد كلّ من سار على نهج النبي الكريم مِن الصحابة والتابعين هم قُرَّة أعين المُحبين، ومَهَوى أفئدة السامعين، بعدما عَبَروا الطريق، ونَالوا المُرَاد، وفازوا في دينهم ودنياهم من سكينة الرُّوح، مُفارقين تيَه الوحشة والضياع، حتى نجد كل من سار على نهج نبينا بإذن الله في جناتٍ ونهر، في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

وفي هذا المقام أُذكركم بحديث رسول الله ﷺ كما جاء في الصحيحين: «يتبع الميتَ ثلاثةٌ، فيرجع اثنان ويبقى معه واحدٌ، يتبعُهُ أهلُهُ ومالُهُ وعملُهُ، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله»..

أخرجه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠).

ولقد رسم الإمام ابن الجوزي ذلك في أبهى صورة، فقال: «انظُرْ إلى حالكَ الذي أنتَ عليه، إنْ كانَ يَصْلُحُ للموتِ والقبر؛ فتمادى عليه.. وإنْ كانَ لا يَصْلُحُ لهذين؛ فَتُبْ إلى الله منهما، وارجع إلى ما يَصْلُح».

فإذا علمت هذا فخذ من دنياك ما ينفعك لآخرتك قبل أن يأتي يومٌ السماء فيه قد انفطرت، والكواكب من هوله قد انتثرت، والنجوم من حوله قد انكدرت، فتفكر في حالك بعدما ينتهي بك إلى الليالي المظلمة في لحدٍ أحوج ما تكون بحاجة لله، تفكر فيما أنت بصدده لتستنبط منه شيئًا لستَ بصدده، فلتأخذ من نفسك لنفسك، ومن دنياك لآخرتك، تفكر لترتقِ وتعمل، تفكر لئلا تُصاب بالجمود الروحاني، لئلا تتوقف إذا وقفت، لئلا تُحبط إذا انتكست، لئلا تخاف إذا فُزعت، فهلَا أرسلت النظر إلى بعيد، فإن الله من وراءكَ محيط!

فاسعَ إلى طاعة الله، ولا تُؤثِر في سفرك إليه المال والأهل على طاعته ومحبته، ثمَّ لا تنسَ اليوم الذي تموت فيه وحدك، وتُبعث فيه وحدك، وتقف أمام الله وحدك، ولا يبقى فيه إلا عملك.. فأين عملك؟

فما أعظم لقاء الله لمَن عمَّر آخرته بالأعمال الصالحة، وجاهد نفسه في طاعة محبوبه، فعاش دنياه مُستبشرًا بالموت متى جاء فيا مرحبًا به، فهو على ميعادٍ مع ربِّه الذي أطاعه وأحبه، على شوقٍ دائمٍ كيف سيُعامل قلبه الذي بَذَل وأعطى، ونَافَحَ وكَافَحَ من أجل نيل رضوانه.. على عكس الإنسان المُسرف على نفسه فلم يمتثل لأوامر خالقه ولا نواهيه، فلم يَعُدَّ العُدّة للقاء الله، فتراه خائفًا من الموت، مُحبًّا للدنيا، نافرًا من الآخرة!

وشتان بين القلبين! فأين قلبك بينهما؟

وبين هذين القلبين قلبٌ خلطَ عملًا صالحًا وآخرَ سيئًا، يُجاهد نفسه بقدر طاعته على اجتناب المعاصي التي تُبعده عن ربّه، تجده مُشتاقًا إلى رؤية خالقه غيرَ أنه خائف من عذابه، فيتمنى لو طال عمره على طاعة الله، يتمنى ألَّا يقبض الله قلبه إلا وهو راضٍ عنه، غيرَ أنَّه خائف من معاصيه، لا يدري أهو إلى الجنَّة أم إلى النار..

إلَّا أنَّه يُحاول!

يَا هاربًا مِن الدُّنْيَا وظلمتها.. إنْ لَمْ تَكُنْ أنتَ السعيدُ فَمَنْ لَهَا؟

تكلؤنا الدُّنْيَا بِصُحْبَتِهَا.. وتسعد النفس فَيَا إِلَهِي دُلها

*****

السعادة!

ما زالت بركات الله تَهِلّ على روح العبد المؤمن مُبحرة بين جوانحه شمس اليقين من الرعاية بنفسه بما ينفعه من مطالب الدين والدنيا، ولا سبيل لأن يُصاب العبدُ بما يشغله عن الله وعن نفسه مِن وساوس الشيطان وهمزاتها، وهموم النفس وأتراحها.

فالسعادة تتجدد يوميًّا للعبد بما يتقرب به من عبادات إلى الجليل سبحانه، ولكنه يفوته الشعور بها، يعيش الإنسان أشياءَ كثيرة سعيدة من حوله لمجرد شعوره بمحبه الله تحويه.. في الوقت الذي يتوهم فيه العبد أنه ينتظر السعادة، كانت السعادة ترويه!

فلا تحمل همَّ طلب السعادة فإنه ذُلُّ النهار وهمُّ الليل، ولكن عليك أن تكون مُستعدًا لها فلقد أوجدها الله سبحانه لأجلك، وكل ما عليك فعله أن تنتبه ألا تفوتك السعادة، فالسعادة بيدِ الله والأمر أمرُه والقوة جميعًا له، والعبد إنما يستمد السعادة منه لا من غيره بواسطة الأسباب أو من غير واسطة حتى يتنبه العبد لِنعَم الله بحاشية شعوره، لا أن تخلق إيمانًا جديدًا في أعماقه وحسب، وإنَّما لتُحي القضية الإيمانية من حاشية الوجدان إلى ينابيع الإتقان حتى وإن ضاقت عليه الأسباب وانخلعت المُسَبِّبات!

ولذلك ينبغي عليك أن تتفطن بين عطاء الله بسبب، وبين عطائه بلا سبب، فالهبة عطاء الشيء بلا مقابل، ولذلك كان دعاء

سيدنا زكريا عليه السلام كما حكى القرآن لنا بالهبة التي هي خارج حدود الأسباب، فهو يعترف أنه ليس هنالك من المؤهلات التي تجعل له ولدًا، ولذلك كان دعوته عطاء بلا مقابل! وكذلك الحال في قلبي وقلبك، فإن عجزت الأسباب فلا نيأس فهنالك المُسبِّبُ الأعلى يُعطي بالأسباب وبغيرها!

ومجرد التأمل بأن الله أوجد السعادة لأجلنا يشع في قلوبنا محبته، والحرص على ألا يفوتنا شيئًا مِن عبادته؛ من صلوات خمس فتزداد قيمتُنا، واستغفارٍ فيمحو الله ذنوبنا، وكثرة الصلاة على نبينا محمد فيُكفى همنا، وقراءة ورد مِن القرآن فتقوى حجتُنا، فإن الله يفتح بالقرآن على العبد فتوحات ونفحات بما لا يُفتح به مِن سائر العبادات، وسنتطرق لهم بالتفصيل لاحقًا.

فسعادتنا نابعة من العبادات التي نقوم بها في يومنا، وأن السعادة خُلقت لأجلنا، وكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له، فلا تتكلف سعادتك ولا تَتَصنّع، وإنّما عليك الانتباه لها خطوة بخطوة، وحركة بحركة، فنحن لا نهرب من السعادة بل نهرب إليها، فالسعادة الحقيقية أن تمتلك الدنيا، لا أن تستحوذ الدنيا عليك.

ومما يُعين العبد على ذلك أن يُحدّد لنفسه هدفًا من يومه، وهدفًا من حياته، ويكون واقعيًّا بشأن أهدافه، لا أن تكون خارج حدود النفس البشرية ولكن أن تكون أهدافه وأعماقه شيئًا واحدًا لا يفترقان، يرسم لنفسه علامات واضحة وخطوات فاصلة تُعينه

على أهدافه اليومية، يلزم نفسه أن يفعل هذا الهدف البسيط اليوم مجتهدًا بوسعه في تحصيله بواسطة الأسباب المتاحة.

لذلك نجد أصحاب المشاريع يحدِّدون الغاية من صنعتهم، وقبل أن يسبقوا الأهداف وضَعَوا منهج صيانتها، ومنهاج يشمل حركتها، فهل رأيت صانعًا صنع شيئًا، ثم قال: انظروا في أي شيء يمكن أن يستخدم؟

كذلك ينبغي علينا جميعًا أن نصنع لأنفسنا أهدافًا يومية في أي مجال نُحبه، وحين نحقق الهدف اليومي البسيط الذي وضعناه لأنفسنا، يبدو أمامنا الهدف الأكبر أمورًا مُمكنة الوصول إليها.

ولذلك يقول المثل العربي: «الأمل دون عمل تلصُّص» فما دُمْت تأمل أملًا فلا بُدَّ أن تخدمه بالعمل اليومي لتحقيقه، لذلك علينا أن ننظر إلى أهدافنا اليومية أولًا ونتحدث عنها، لأنه لو تحدثنا عن الهدف الحياتي طوال الوقت، واستحقرنا يسيرَ محاولاتِنا الأولى، سنظل نتحدث ولا ننجز شيئًا، وسيكون الأمر صعبًا لأنه لم يكن هناك أهداف يومية تُعيننا على تحقيق أهدافنا الحياتيّة!

ولله قول الشاعر:

بَقِيَ القليلُ حتى تُفرَجَ المِحَنُ.. أرَأيتَ مُمْتَحنًا يَمضِي العُمرَ يَمتَحِنُ؟

فرفقًا بنفسك ولا تستعجل أحلامك وأهدافك، واسعَ على قدر طاقتك، ولا تُكَلف نفسك ما لا تطيق، ولا تقارن نفسك بأصحاب "السوشيال ميديا" حتى لا تصاب بإحباط ثم تنتكس، فليست

حياتهم كحياتك، فبناؤهم الضوئي شمسُهم، وبناؤك الضوئي القمر!

وتعالوا نذهب في جولةٍ سريعةٍ إلى بيتي وأنا في السادسة من عمري يوم كانت والدتي -حفظها الله- تُعلّمني حِفظَ كتاب الله، لنلتقي معًا مع أَوّل لقاء مع أهدافي اليوميّة التي أشرقت على أهدافي الحياتية بفضل الله..

ويا لله اللطيف القدير: كمْ كانت والدتي صابرةً عليّ، تَجِدُني أنصب الفاعل، وأرفع المفعول به، وأَقلِب الكاف قافًا، حتى إنك لتراها تبتسم ابتسامة هانئة حين أبدأُ في تلاوة سورة الفيل عليها، فَقد كنت أقرأها هكذا: ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم قَعصف مقتول، وهي تبتسم قائلةً ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾ [الفيل: ٥]، وأنا أعيد عليها القول: مقتول يا أمي، مَقتول..

مَرت الشهور والأعوام، ولقد كَتَبَ الله لي ما شاء أن أَحفظ مِن كتابه الكريم في صغري، حتى جاء يومٌ كالشمس نُورًا وضياءً وَحفظت -ما شاء الله- القرآن الكريم.. ولْنَدعُ والدتي تُكمل لنا بقيّة الحديث:

«ذات يوم جلس ابني بجواري وهو في الثامنة من عمره، فأخبرته أن يُراجع ما حَفظَه من كِتاب الله، ولقد وَضَعتُ أمامه أهدافًا يوميّة بسيطة مُقارنةً بأسمى السِّمات من حفظ القرآن كاملًا، وقُلت له إن رَاجَعت جزء عمّ فلك عشرون جنيها، وسُرعان ما

ذهب ابني لغرفته، ثمَّ جاءني مُستَعينًا بنصب الفاعل ورفع المفعول به، وعائدًا إلى غُرفته سعيدًا بِحفظه وماله الجديد..»

ولا بأس أن نتركَ لها بقيّة الحديث يا أصدقائي لِتُكمله:

«..عندئذٍ قلت له: جزء تبارك وسأعطيك ثلاثين جنيهًا.. فَتَهَلَّلتْ أسارير قلبه الصغير حتى أكمل مراجَعة جزء تبارك، وَرَجع إلى غرفته منتصرًا وسعيدًا.. وهكذا أَضَعُه أمام هدفٍ بسيط مُقارنةً بالهدف الأسمى الذي أنا في انتظاره منه، حتى جاء يومٌ في بيتنا في هدوء البحر وقوَّته تَسري إلينا خيوط النور في فَرْحة وبهجة، فلقد أكمل ابني بفضل الله عليه حِفظَ كِتاب الله كاملًا بَعدَ أن كانَ أمرًا مُستحيلَ الوصول إليه»..

ما أَرَدتُ إخباركم به من قصتي معَ والدتي في حفظ كتاب الله ألَّا تُعرضوا لأنفسكم أفقا فسيحًا في أهدافكم مِن أَوّلِ مَرةٍ، بل ضَعوا أمامكم هدفًا بسيطًا من أحلامكم، ركزوا عليه وحققوه، وحينما تُحققوه ستُصبح أهدافكم سهلة الوصول إليها يومًا ما بإذن الله.

وخير الإنجازات اليومية التي ينبغي أن تضعوها أمامكم الصلوات الخمس، وقراءة ورد يومي من القرآن -وإن كانت صفحة- فأحب الأعمال إلى الله ما دووِم عليه وإن قل، وبرّ الوالدين، والحفاظ على ذكر الله سبحانه من التسبيح والتهليل والتكبير، ومن ثمَّ الإقبال المستمر على ما ينفعنا في مجالنا الدنيوي، فهذا إنجاز المُوفقين أهلُ الله وخاصته؛ لأن العبد المؤمن فقير محتاج أن يكون مع الله، وأن يكون الله معه، حتى يُقبل على الطاعات بالعبودية لله

والافتقار إليه فيرزقه الله من رباطة الجأش ما يذيب الصخر ويُلاشي الهول، والفقير المحتاج إذا نادى ربه أجابه بعزة الربوبية في تحقيق مآربه في الدنيا ومطالبه في الآخرة!

وهكذا نحن في هذه الحياة نتحرك، تُحركُنا أشواق ومشاعر متجهين بها نحو سعادتنا دون أن نلاحظ اليد الغيبية التي تعمل في الخفاء، حتى وإن كانت تحركاتنا هي عين الأسباب الواضحة، إلا أن اليد القديرة التي لا تدركها الأبصار قد خلقت لنا سعادتنا وما علينا إلا الشعور بها آخذين بالأسباب في نطاقنا المُتاح الذي ما هو إلا ستار ليدِ المُسبب العزيز الغفَّار!

لذلك أهم ما ينبغي عليك الانتباه له في رحلتك الدنيوية أن تُركز على أهدافك العظمى من عبادة الله على أنها حياتك التي تحيا لأجلها، ولا تجعل من المعارك الجانبيّة تستهلك عمرك، حتى لا تلهو بك الوساوس النفسية ثم يحصل لك من الانتكاسات ما يُضيّع عليك معاركك الحقيقية، واجعل شعارك في هذه الرحلة قول الله تعالى:

﴿ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥ ﴾ [الحجر: ٦٥].

لا تنظر بعيدًا ولا تلتفت إلى الميمنة والميسرة واتجه إلى قلبك لقد خُلقتَ لهدف عظيم، وهذا الهدف إن لم تجعله سببًا في ارتفاع منزلتك عند الله فلبئس صفة العبد أنت، فلقد خلقنا الله عقولًا وأحلامًا مختلفة حتى تستمر حركة الحياة، فكل إنسان يسعى بضمير صادق فيما يُحب؛ لعلّ هذا ما يفتح له أبواب الجنة،

فالناس مختلفون في المواهب، وفي الملكات، وفي حسن الأداء وفي صياغة الثناء، وكثير ما أتعجب فيمن يُعاتب زميله على تقصيره في درجات الكلية، ولا ينظر إلى مدى ما استفاده في مجاله الذي يُحبه وشاء قلبه أن يسعى تجاهه، فالدرجات ليست مقياسًا على نجاح الطالب ما دامَ يسعى في تحقيق ما يتمنى.. وإنما العجب لِمَن ينتكس عن مجاله الجامعي لأغراض تافهة لا نفع فيها ولا منفعة، لا عن الشخص الذي تراه مُقصرًا في شيء ما، ومع ذلك لم ينتكس بعد، وفوق هذا قد حقق أحلامًا في مجالات أخرى.

فإذا فهمت ذلك فلا تجعل من المعارك الجانبيّة في حياتك هي حياتك! ولا تتوقف لمجرد تجربة فاشلة، أو تملّ لمجرد كلمة جافية، بل اسعَ في رحلتك الدنيوية أن تزرع في قلبك محاسن الإيمان، وجنات القرآن، فالقلب إذا حفته العناية وأحيط بالرعاية كان أهلًا لحضور السعادة، وكان مَغنَمًا لوسائل الهداية!

فمهما كانت أحلامنا بعيدة وصار بيننا وبينها أمد طويل، إلا أن يد المدبر تعمل في الخفاء وتزيد إيماننا بأن أهدافنا أمورٌ ممكنة الحصول عليها، وسنصبح أكثر ثقة على صناعة التغييرات، فالأهم من تحقيق المعجزات أن نصنع المستحيلات في أنفسنا أولًا، وعلى حد القائل: «إذا أردت تغيير العالم فابدأ بترتيب سريرك!».

وههنا أمر ينبغي عليك التفطن إليه حتى تسعد، ففي زماننا هذا مع انتشار السمعيّات والمرئيّات ضلّ الناس طريق الثقافة والعلم، والأدهى من هذا أصبح أغلبية الشباب يأخذون ثقافتهم من

المسلسلات والأفلام التي تسعى في الأرض بالفساد والإفساد، والأمَرّ من هذا أن معرفتهم بالدين وفقهه أقرب للصفر، وبين هذا لا تجد حديثهم إلا عن الدنيا بَدءًا بالمسلسلات والأغاني، ومرورًا بالصحف والقنوات، ثم يبقى من وراء هذا كله إنسان لا يُحسن يُتمُّ عبادته، فلا هو صادق في حبه مع ربه، ولا حزنه على نفسه، حتى أصبحنا في مجتمعٍ الصابر فيه على دينه كالقابض على الجمر!

ومن المؤسف ما نجده من كثرة الفتن على مواقع "السوشيال"، حتى إنّك لتجد هناك في بعض تلك المواقع معيار الحلال والحرام بات مفقودًا، وبذلك نرى الآن في كل مكان الشاب يفعل المُنكر ثمّ يقول «أنا شايف إني مش غلط»، وبطبيعة الحال هذا ليس رأي ذلك الإنسان بعينه، إنما هذا نتاج تأثير البيئة القاحلة التي بذرت فيه تلك البذور الخبيثة، لأن فطرة الإنسان تستطيع أن تُفرق بين الحلال والحرام، وحين كانت البيئة التي يتواصل بها شبابنا على السوشيال بعيدة كل البعد عن مقاييس الأحكام الشرعية بات معيار الحلال والحرام مفقودًا عند الحديث عن الأفكار والمقترحات والأفعال والأقوال، وبذلك تهاون أغلبية الشباب في الأمور التكليفية ب "افعل ولا تفعل"، وتغذَّت القلوب بالحرام ولم تعد تصلح لاستقبال ما أمر الله به، لأن الحرام يزأر فاسدًا الفطرة التي خلقها الله وكأنَّه يُريد أن يقتلع جبال الصحراء الراسيات من مكانها!

لأجل ذلك هذه الفطرة إن استقامت على الفهم الصحيح للدين أصبحت جوارحها مُستقيمة، فالجوارح في الدنيا أُخضعت لِمُرادَات النفس البشرية، فإن كانت بعيدة عن مقاييس الحلال

والحرام فاللسان خاضع لها، وهكذا بقيت الأعضاء مُنفعِلَة لإرادة صاحبها، إن كانت خيرًا فخيرًا، وإن كانت شرًّا فشرًّا.

لذلك ما أطلبه منك فقط أن تتوقف قليلًا عن هذا العبث الدنيوي الذي تاه فيه الشباب، مُجاهدًا على استعادة ما أُخمد في قلبك من كل حبٍّ للدين، عليك أن تتوقف لتملأ وِعَاء قلبك بما يُفيد، كي لا يدخل في قلبك الخزعبلات التي تُزيـغ به عَمَّا تُؤمن، عليك أن تتوقف لتنظر إلى شتى الأمور من حَولِكَ بتجرُّد، أن تنتقل من حَولِ البشر إلى ربِّ البشر، أن ترى بعين ثاقبة إلى ما وَصل إليه حالك ومقالك، عليك أن تتوقف لتنظر إلى قلبك وما دخل به من جرْم على جرْم حتى صار يَهشُ ويَبش بما لا ينفعك في دينك ولا دُنياك، عليك أن تتوقف لتنظيف ما عَشَّشَ وبَاضَ وأُفرِخَ من خزعبلات الأقوام الفاسدة على عقلك، عليك أن تسأل قلبك كيف حاله مع ربّه لو توقفت دقاته الآن؟

كيف حاله وهو يُسأَل عن كل صغيرة وكبيرة؟، فأي هلاك يتجه إليه الإنسان وهو لا يفقه دينه ولا أحكامه ولا يُجيد صلاتَه ولا يُحسن قراءة القرآن ولا يعلم عن أحاديث رسول الله شيئًا، ومع هذا تجده "لِبْلِبْ" في الأغاني والأفلام وأسماء المُمثلين و"الماتشات"!!

بل الأعظم من هذا قد تجده لا يعلم ما هي أركان الإسلام ولا الإيمان، ولا يجيد التفرقة بين الفرض والسنة، وقد يكون على جنابة ثم يذهب ويغتسل اغتسالًا غير صحيح ويعتقد أنَّه اغتسل

وهو مع ذلك ما زال جُنبًا، وإذا سألتَهُ عن كيفية التيمم لا يعلم، وإذا سألتَهُ عن المهرجانات يعلم، وإذا أَشَرَت عليه بشيخٍ يتعلم منه أحكام دينه يرفض، وإذا أَشَرَت عليه بِمُسلسلٍ يَقبل وربما تُقابله في اليوم التالي تجده انتهى من مشاهدة موسمه الأول!، ثمَّ إذا حدثتَهُ عن الحلال والحرام زَجَرَ، وإذا حدثتَهُ عن الفسوق والفجور سَمَح، فلبئس صفة المرء يبخل بنفسه على الله!

فلا حاجة للسؤال إذًا لماذا انتشرت الاكتئابات والاختلالات النفسية والاجتماعية، والتخلخلات الإيمانية والدينية، والخزعبلات القومية والشخصية!

فجاهد نفسك على النجاة من فتنة الدنيا، ولا نجاة إلا بالعلم، وكثرة الاستغفار حتى تُنَقَّى آلة استقبال العلم، فأسرع وألقي بقلبك في بشاشة الإيمان، ورحمة الرحمن بين يديه مع أَطواءِ التائبين بعد أن أثقلكَ أطوال المُتعجرفين حتى تنهل من غمامة الدين وشمس اليقين قبل الرحيل فعساكَ تنفع قبل الرحيل، فليلٌ حتمًا سيمضي، ونهارٌ سيأتي، وسنينُ عمرك العِجاف اليابسات سيحلُّ مكانها السِّمان اليانعات.

واعلم رحمك الله: أن أفرض ما فرض الله عليك معرفة دينك، بدءًا بالقرآن العظيم وأحاديث الرسول الكريم، وفي هذا أنصحك بقراءة كتاب (شرح الأربَعين النَّوَويَّة) وزادك في هذه الرحلة الشيّقة حديث رسولنا: «نضَّر الله عبدًا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأدَّاها».

أخرجه الترمذي (٢٦٥٨).

ثمّ اقرأ عن سيرة سيّد الكونين، ومن أجمل ما هو مكتوب لسيرة رسول الله كتاب (فقه السيرة للإمام الغزالي) ففيه من الخير لك ما شاء الله كان، ومعلوم أنّ الخير يكون على نوعين: خير يقيم القيم الإنسانيّة والروحانيّة، ودراسة سيرة رسول الله ﷺ جامعة ما بينهما، والحمد لله.

واحرص على قراءة ما قصه أهل العلم من أخبار الصحابة، لعلك أن تعرف الإسلام والكفر، فإن الإسلام اليوم غريب، والشباب اليوم في تيه وضياع، وأفضل ما أدلك على التزود منه كتاب (رجال حول الرسول) لتنظف قلبك عن كل وساوس الحياة الجافة لا عن تقليد موروث ومعرفة قليلة وحسب، وإنما بالحب الذي ينبع من حاشية الوجدان والشعور.

ثم احرص على قراءة كتاب (قصص الأنبياء من آدم عليه السلام إلى أصحاب الفيل) وفي هذا المقام يقول بعض السلف: «القصص جنود الله»، ويقول الله جلّ وعلا:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١١١ ﴾

[يوسف: ١١١].

واجعل قرة عينك تعلم الفقه فهو يدلك على معرفة حقيقة الإسلام وسماحته، ويسره ومرونته لا سيما في زمننا هذا الذي توفرت فيه وسائل الاتصال، ومن أوضح ما يكون لذوي الفهم هو كتاب (تمام المنَّة للشيخ العزازي) فإن استطعت شراءه فأسرع وتعلّم أحكام دينك الصحيح، فالكتاب يصنع في القلوب صنيع الماء في الأرض الجدباء، فاصطبر على دراسته فهو يشرح لك الأحكام الفقهية بدءًا بالطهارة، ومرورًا بأحكام الصلاة، ووصولًا إلى أحكام الصيام والزكاة والحج، فصابر ورابط على تعلمه.

وخذها نصيحة يا صديقي في طريق التعلم الطويل لأي كتابٍ عليك أن تُعطي أضعاف ما تأخذ في البداية حتى تأخذ أضعاف ما عطيت! واجعل نبراس حياتك، وقوة عزيمتك حديث رسول الله -عليه أزكى السلام- كما جاء في الصحيحين: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين».. أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧)

وبالله توفيقك وسدادك.

فهذه بعض من الكتب الغنية عن غيرها التي ستُنمي شخصيتك وتفكيرك، ومع هذا سُتصبح عالمًا في جوانب الدين كلها، فالارتقاءات التي نراها في الكون هي نتيجة التفكُّر ودراسة الكتب!

ونحن في زمانٍ انتشر فيه أهل البدع الذين يضعون السم في العسل، وإنَّك لتجد على مواقع "السوشيال" تعليقات مُخزية من شباب باضَ عليهم التفكير السلبي، فيسعون هنا وهناك بالفساد والإفساد، والأعظم من هذا هو استساغة عقولهم لتلك الأهواء

الشيطانيّة، فهذا من أدهى أنواع الضلال بِمَا رَكب العقول من الأطباق طبقًا بعد طبق، وقاشاه من الشدائد شدة بعد شدة، فانشَغَلت أرواحهم بالمعاصي حتى أصبحت مسألة عادية تحدث كل يوم!!

ولو أنَّ لي بنصيحة صادقة من قلبي أخيرة في باب طلب العلم الديني فعليك على الدوام بقراءة تفسير خواطر الشيخ شعراوي - رضي الله عنه وأرضاه- وهو مُتاح على برنامج «المصحف الذهبي» فموجود فيه خواطر شيخنا مكتوبة كاملة على كل آية من آيات القرآن، فتروي ثمار القلب، وتنفع يقين العقل.

فاحرص على معرفة دينك الذي مَن استمسك به سلم، ومن ضيعه هلك، وجاهد نفسك على تنظيم وقتك، فالوقت يتّسع إذا نظمته، ويضيق إذا أهملته، وما يُعينك على ذلك ألَّا تنشغل بمواقع التواصل كثيرًا، فإنها تُشتت الذهن إلى أن تسرق الوقت منك بغير شعور، فقلل ساعات وقتك هذه التي تمضي بلا منفعة واغتنم من العلوم الدينية ما يجعلك أقرب إلى الله، ومع قراءتك المستمرة ستفوق الملايين من أقرانك علمًا وفهمًا، وستقدر على هدم مئات الآلاف من الأوهام والخرافات الشعبيّة عندك وعند الناس بأقلِ مجهود، ثم يوم القيامة تأنس بجوار الرحمن سبحانه مُرتقيًا إلى أعلى عليين مع النبيين والصدقين والشهداء والصالحين.

ولله قول الشاعر:

مَن لم يُجاهد قلبه وقتَ الصِّبَا.. ضَاعَتْ عليهِ مَراتبُ الأخْيَارِ

وفي هذا المقام، مقام الجمع من علوم الدين، يقول الإمام الشافعي -رضي الله عنه وأرضاه-: «من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تكلم في الفقه نما قدره، ومن كتب في الحديث قويت حجته، ومن نظر في اللغة رق طبعه، ومن نظر في الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه»..

فلا تتوقَّف عن القراءة ما حييت، ولا تملَّ أو تكلَّ، ولا تَترُك الرَّاية، ولَا تستسلِم، واشغِل نفسك بالعلم النافع، وابتعد عن كل علمٍ لا ينفع، والعجب أن بعض طلاب العلم يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس معهم بأشياء لا تُسمن ولا تُغني من جوعٍ.. ومِن أعجب والله ما وجدته يومًا وأنا أقرأ هو موقف العلماء في النملة التي ذكرها الله ﷻ في القرآن الكريم، واختلافهم على كونها ذكرًا كانت أو أنثى! ومن ثم اختلفوا في اسم الوادي، ثم اسم النملة! إيْ والله اسمُ النملة! وكأنها لا تكون نملة إلا إذا حملت اسمًا لها!

فالواجب علينا جميعا ألا نشغل أنفسنا بما لا ينفع ولا يضرّ حتى لا نبتعد عن الفهم الصحيح للعبرة.

وأذكّر نفسي وأذكركم بقول عبد الله بن مسعود: «كن عالِمًا، أو مُتعلمًا، ولا تكن الثالثة فتهلك».

وقول سيدنا علي بن أبي طالب: «الناس ثلاثة: فعالم ربّانيّ، ومتعلم على سبيل النجاة، وهملٌ رعاع أتباع كل ناعق، يميلون حيث مالت الريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يركنوا إلى ركن وثيق».

ثم حسبك هذا الحديث: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع».

أخرجه الترمذي، وقال: حديثٌ حَسن.

فاستغل المتاح أرجوك بقدر المُستطاع وخذ بالأسباب وكأنَّها كلّ شيء، ثم ارجُ الله أن يفتح عليك آفاقًا واسعة في العلم وكأن الأسباب ليست بشيء، ولا تضيّع وقتك في الجلوس على مواقع السوشيال التي ضررها أكثر من نفعها، وصاحب الكتب الدينية التي تُعينك على النجاة يوم الهلاك، ثمّ بعد ذلك تجرَّد بقلبكَ عن الأسباب وانتقل به إلى مسبِّب الأسباب حتى تكون سعيدًا به وقريبًا منه، فجاهد نفسك من الآن على طلب الفضائل التي تسوس حركة حياتك، فتسعد بها، بل ويسعد غيرك بما تملك من المنطق الطيب والتعبير الحسن.

*****

الأخذ بالأسباب

عليك الإتقان في اكتساب العلم النافع والأخذ بالأسباب في نطاقك المُتَاح وليس عليك بما يتخطّى حدودك، فموسى -عليه السلام- ألزم نفسه في البحث عن الخضر ولو ظلّ عمره كله يسعى، وهذا ما أضاءه لنا القرآن: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف: ٦٠]..

والمراد من قوله لا أبرح أي: لا أترك السير إلى هذا المكان حتى أبلغ مجمع البحرين، وقوله: أو أمضي حُقبًا أي: لا أترك السير ولو سِرْتُ فترة طويلة من الزمن.

وذلك لأن غاية الحياة هي السعي المُستمر حول الأهداف، ومن المؤسف أن أغلبية الشباب لا يفقهون دينهم ولا يُقيمون الصلاة ولا يقرأون القرآن، ثم يقولون الله ربّنا ربّ غفور رحيم، فهذا ادّعاء للتوكل من غير دليل!، ومثلهم كمثل الذي اتخذ بيتًا من بيوت العنكبوت، يأوي إليه، ويسكنه من الحرِّ والبرد، فهل يغني عنه ذلك شيئًا؟

فإنه من باب أولى للإنسان استخلاص ما يُسعده من المُتاح بدلًا من الركض وراء الخيالات، ومن ثمَّ النظر فيما رُزقَ من الدُّنيا بدلًا من البحث المُستمر عن السعادة من اللا شيء!

ونقطة الأخذ بالأسباب وعلاقتها بنواميس الكون التي سَخَّرَها الله لأهل الأرض يجب أن تكون نبراس المؤمن في كلّ شيء، فجميع

البشر مُسلمًا كان أو كافرًا عبيدٌ لله وهو الذي أوجدهم من العدم، فَمَنْ يأخذ بالأسباب يرزقه الله ويُهيئ له المُسببات، وذلك لأن السنن الكونية تخدم الكلّ لا فرق بين المسلم والكافر!، فرِزْق الله في الدَّنيا للجميع، أما منهج الرحمن بافعل وهو الأمر، أو لا تفعل وهو النهي هو خاص بالمؤمنين، فطالما أنَّك مُؤمن بالله، فهنالك منهج يشمل ما يحبه الله وما لا يحبه الله.

واعلم يا صاحبي أن ضروريات الحياة قد سخرها لنا الرحمن، بَيْدَ أنه إذا أردنا ترفَ الحياة فعلينا استخدام عقولنا لنصل بها إلى الكماليات، فالله خلقنا بالعقل لأنه لم يشأ سبحانه أن نكون قوالب حديدية لا نلتفت إلى ما حولنا من الكون، بل خلق لنا عقلًا نألف به السعادة بحرية الحركة الفكرية التي خلقنا الله عليها، لنستطعم الكلمة الطيبة، ونترعرع مع الحركة الصالحة، ونستنشق هواء الخطوة الصادحة، ونتشعشع برحمة الله الواسعة.. ثمَّ مَنحنا منهج «افعل ولا تفعل» ليقينا من انحرافات العقل والقلب، فإن ابتعدنا عن هذا المنهج ولم نمتثل للعمل به ضيّعنا أنفسنا مع مقومات الحياة وعراقيلها!

وهذا المنهج بافعل ولا تفعل مُقترن بالثواب والعقاب على أعمالنا، وهذا من رحمة الله سبحانه بالعباد، لأنه ليس من العدل أن يكون السارق والمسروق، والقاتل والمقتول، والطائع والعاصي عند الله سواء، ولذلك اقترنت الحكمة الإلهية بوجود مبدأ الحسنات والسيئات عليك إذا دخلت في هذا المنهج، ويستحسن بك أن تفهم أن الثواب ليس هو الخير فقط، بل حتى وجود العقاب

إذا فعلت سيئًا هو كذلك خير، لأنَّك ساعةَ تعلم أن السيئة ستُحْسب عليك ستبتعد عنها.

والحقُّ سبحانه لم يغلق بابه على العصاة، بل فتح لهم التوبة على ما فعلوا من الذنوب، فالله ليس غافرًا للذنوب فحسب، بل هو غَفَّارٌ لها؛ أي كُلَّما عدت إليه غفر لك!

وحَرِيٌّ بك أن تعلم أن الفرار من عذابه يكون إليه، وإقدامك على طاعته سعيًا إليه، فإن كان حالك الذنب فاطرق باب الاستغفار، وإن كان حالك الطاعة فاطرق باب الإقرار، فالكريم سبحانه لا تتخطاه الآمال، ومهما سعيت تجاهه تجده تجاهك!

ويُستحسن بك أن تتفطن إلى غاية الشيطان الرجيم بين العبد وربه، فغرض الشيطان ليس أن تقع في الذنوب وحسب، بل أن تيأس من رحمة الله الواسعة، لأن اليأس من رحمة الله كفر، وله مشهد آخر مع الطائعين فيوسوس لهم الاغترار بعملهم، لينتكسوا بين ليلةٍ وضحاها!

فلا تستمرئ لوسوسته وَضَعْ قلبك بعد كل معصية هَمَمْتَ بها في طيِّ التائبين لله رب العالمين، فهو سبحانه يغفر الذنوب جميعها كبيرها وصغيرها إذا تاب العبد وعمل عملًا صالحًا، لأنَّ العمل الصالح هو الينبوع الذي تصدر عنه القضية الإيمانية، وهو دليل صدقه مع ربه!

وخليقٌ بك إذا رأيت إنسانًا يقع في معصية فاستره ولا تُعايره، فسترك له ربما يُشجعه لفعل الخير خوفًا من الله، ولِمَ لا، وقد تكفَّل الله له بمغفرة ذنوبه إن تاب وأناب؟

ومن الأخطاء التي يقع فيها المسلم من وساوس الشيطان، هو اعتقاده أنَّه مُنافق في طاعته حينما يعصي الله، وهذه من أخبث الوساوس التي تُدمر الإنسان خاصةً إن كان على غير علمٍ كافٍ بعلوم الدين، فاعتقاده أنه مُنافق لأنه يقع في الذنب كُلّما تاب منه من أكثر ما يُفسد قلب المُسلم الذي يُجاهد قلبه على طاعة الله سبحانه.. فما دامَ المُسلم يُجاهد بقدر طاقته على التوبة لله رب العالمين حتى وإن وَقَعَ في الطريق ثم قام، ثم وَقَعَ مجددًا وقام طالبًا عفو الله، فهذا الإنسان ليس مُنافقًا، بل هو مُجاهد، وجهاد القلب على طاعة الله مِن أعظم ما هو مَطلوب من العبد المُؤمن في رحلته إلى الله.

أمَّا ما نراه من الشاب من ترك الصلوات، والمشي بالمنكرات، والبُعد عن الطاعات، ثم يستمرئ ذلك ولا يقف وقفة يُحاسب نفسه عليها، فهذا سوء أدبٍ مع خالقه سبحانه؛ إذ شرع له باب التوبة، ثم مع ذلك تراه ضائعًا تائهًا في غوغاء العاصين وسكارى الشاردين، ولا يرجو باب التائبين، ولا يخاف خوف الصالحين، ولا هو صادق مع الصادقين، ولم يكن مع المُصلين، ولا كان يَأمر بالمعروف مع الآمرين، ولا يَنهى مع النَّاهين، ولم يقرأ كتابَ ربِّ العالمين، ثم استأنس بمجلس الظالمين، وإذا فَعل خيرًا كان من المُرائِين، وكان مُكثرًا مِن سماع المُغنين، ولا يعلم بنصفِ درهمٍ عن

أحكام فقه الدين، ولا قول الفقهاء الدارسين، ولا عن الأئمة المُجاهدين، ولا أصحاب رسول الله الكرام المخلصين، ولا حتى الأنبياء المعصومين، وتراه "آخر جمدان" في معرفة أشكال اللاعبين، والتَّشَبّه بالممثلين، وحفظ "أَلَشات" أفلام الساقطين، وإذا حدثته عن أقوال الدين بَهُتَ وكان من الساكتين، وإذا كان الحديث عن أقوال الممثلين كان أول السالكين..

ثم لا تراه مع مجالس الذاكرين، لأنه يترعرع مع أصحاب السوء الضالين، فكيف حال قلبك أمام الله إن كنتَ مِن هؤلاء الغافلين، هل إلى جنَّة يا ترى مع المُصلين الصادقين الصالحين الذاكرين، أم إلى نار طعامها كرؤوس الشياطين وشَرابُها من غِسْلِين، فلا ينفع حينها ندم المُذنبين، ولا صُرَاخ المُنافقين، فأين هو قلبك يا مسكين؟!

فجاهد نفسك على أن تكون دائمًا مع الله، عوِّد قلبك على الاستعانة به في كل خطوة تخطوها، وفي كل فعلٍ تفعله حتى في اختراق القوانين الطبيعية التي تدّل بمضمونها على معجزات الأنبياء، يأمرهم الله بالعمل بجانب توكلهم العظيم بالمُسبِبّ سبحانه.. فهذا نبي الله موسى -عليه السلام- حينما جاءه قومه ليدلهم على القاتل، فيجيء الوحي ويأمرهم بذبح بقرة ومن ثمَّ ضَرْبِ المقتول ببعض لحمها.. أليست هذه معجزة خارقة للقوانين الطبيعية؟ فما علاقة ذبح البقرة بإحياء الموتى؟

ثم نعود أكثر بالزمن حيث يأمر نبي الله يوسف -عليه السلام- إخوته الذين جاءوا من البدو بإلقاء قميصه على وجه أبيهم ليرتدّ بصيرًا، فما علاقة القميص برجوع بَصَر يعقوب -عليه السلام-؟

ومع قفزة أخرى للخلف إلى أبي الأنبياء إبراهيم وبالتحديد بعد انتهائه من رفع قواعد البيت، وفي هذا الوقت يأمُره الله بالأذان حتى يأتِيه الناس من كل فجٍ عميق، فكيف يسمع الأذان الناس ولم يُكن حول البيت غير إبراهيم وولده وزوجته؟ فلمَنْ يُؤذِّن؟ ومَن سيستمع في صحراء واسعة شاسعة وواد غير مسكون؟

نقول -وعلى قدر فهمنا- أنّ الله سبحانه أراد تعليم كل نبي وقومه السعي حتى وإن كانت هذه الأمور خارقه للعادة، فليس للبقرة ولا لذبحها، وضربُه ببعض لحمها علاقة بإحياء الموتى، وقميص يوسف ما له وارتداد بَصَر سيدنا يعقوب!، فليكن القميص أيّ قميص، وليكن الأذان أيّ أذانٍ، فما على سيدنا إبراهيم إلَّا الأذان وربُّ إبراهيم عليه البلاغ.

فحينما نتحدث عن هذه الأمور الخارقة للعادة نجد قدرة المُسبّب فوق الأسباب جميعًا، ولكن المطلوب من الخلق أن يعملوا وأن يسعوا، وأن يتحركوا إلى الغايات التي ينشدونها، فمهمتنا في الحياة هي الأخذ بالأسباب حتى في الأمور التكليفية بافعل ولا تفعل، والأمور الدنيوية من المناصب والمكاسب، في جميع الأحوال نؤدي ما علينا من الأسباب، ثمَّ نترك ما فوق قدرتنا

لقدرة المُسبب سبحانه، حتى لا نغتر بألوهية الأسباب ونغفل عن ألوهية المسبب.

ولعلّ قائل يقول: نأخذ بالأسباب المُتاحة ولكن لا يتحقق شيء.. قُلنا له: إن العبد ما عليه إلا العمل والسعي، وأن يَعُول بقلبه على الله لا على الأسباب، وقد يُبتلى العبد لتُرفَع درجته في الآخرة بصبره، فالدنيا في النهاية فانية، والآخرة باقية، وخير الله أعظم وأبقى، وهذا لا يُنافي الأخذ بالأسباب أبدًا، بل علينا الاستمرار على قدر طاقتنا المُتاحة، والله سبحانه وتعالى سيرزقنا من حيث لا نحتسب سواء بالأسباب أو من غيرها.

وأمّا عدم الأخذ بالأسباب نهائيا فهذا خطأ ينبغي التوبة منه، وأمّا الاعتماد على الأسباب دون المسبِب فهذا من الشرك، وأمّا من توكل على الله وألغى الأسباب فهذا سوء أدبٍ مع الله، والمطلوب شرعًا هو الجمع بينهما، وقد قال أهل العلم: «الأخذ بالأسباب عبادة والاعتماد عليها شرك، ومن أخذ بالأسباب ولو كانت ضعيفة ثم اعتمد على الله تعالى فقد امتثل».

فالتوكل الصحيح بالمسبِّب إنما يكون مع مُباشرة الأسباب، ومن دونه تكون دعوى التوكل جهلًا بالدين، وهذا هو التواكل بعينه، وانظر إلى قول سيدنا عمر -رضي الله عنه-: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة».

فاخرُج إلى الدنيا بدلوك الفارغ، وتوكل على الله، وأكثر من الأذكار وألقِ في جُبِّ الأيام دلوك، لعلّ الله يُضيء عليك بفيوضات تجعل بقراتِ أيامكَ العِجاف سِمانًا، ومِن سنابل عمرك اليابسات خُضرًا يانعات، ثمَّ يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يُغاث قلبك من بعد قحطٍ وجفاف، وتُشرق روحك كحبَّاتِ اللؤلؤ المنثور، ويُعاد تأهيلها بمقام الإيمان والطمأنينة، فأنت في هذه الدنيا مع الله، والله معك، فهل هذا على الله بعزيز؟

نعود مجددًا إلى ما كنّا عليه، ولْنَدعُ «أبو الدرداء» يُكمل لنا بقيّة حديثنا، فيقول: «لا يكون أحدكم تقيًّا حتى يكون عالمًا، ولن يكون بالعلم جميلًا، حتى يكون به عاملًا»، لذلك ينبغي على المؤمن إذا أراد تحصيل التقوى أن يطلب العلم، وإذا تَعَلّمَ فإنه يجب عليه أن يعملَ بما عَلِم، ومن ثم نشره في حدود ما يعلم ومع من يعلم حتى يرزقه الله عطاءات ممتدة لا تنتهي.

والمسكين من أضاع عمره في علمٍ لم يعمل به ولم ينشره؛ ففاتته لذات الدنيا، وخيرات الآخرة، لذلك إذا وجدت إنسانًا يحتاج إليك في حاجة في العلم وأنت تستطيع القيام بها فقم له بها وسُدَّها له، وإذا لم تستطع فردّه ردًّا جميلًا، فلا تبخل -أرجوك- بنشر العلم فأنت تضعها في يدِ الله قبل يد الخلق، وتلك تجارة رابحة مع الله قبل أن تكون تجارة رابحة مع الخلق.

فتخيل لمجرد أنك تدل إنسانًا على فضل قراءة القرآن من أعظم الصدقات الجارية لك في دنياك وآخرتك، فربما كنتَ نائمًا والله

يكتب لك من الحسنات كالجبال بسبب أعمال مَن دللته على طاعة الله ومحبته!

فجاهد نفسك ألَّا تترك خيرًا تستطيع القيام به إلا ولك نصيب منه، ويُستحسن بك أن تتفطن أنك تصنع الخير هذا لأنَّك تبتغي مرضاة ربك لا مرضاة خلقه، فإن وجدت جحودًا منهم فلا تكره أنَّك فعلت لهم الخير لأن تجارتك مع الله وليست مع البشر، وهذا ما كان عليه دأب النبيين والصالحين عساك تُحشرُ بجوارهم في عليين.

ولْنَدعُ الإمام ابن الجوزي يُكمل لنا بقيّة حديثنا، فيقول: «لقيت مشايخ؛ أحوالهم مختلفةٌ، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبةٍ: العاملُ منهم بعلمه، وإن كان غيره أعلم منه»، وقال بعض العلماء: «من عَمِلَ بما عَلِم أورثه الله علم ما لم يعلم»، ولقد أضاء القرآن لنا هذا الموضع في قول الله تعالى:

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]

وعلى طالب العلم استحضار هذا المقصود دومًا فالله أكرمُ من أن يرى عبده ينشر علمًا نافعًا لمن حوله ثم لا يفتح له آفاقًا واسعة من حيث لا يعلم!

واعلم أن كثرة المعاصي تنكت في القلب نكتة سوداء تحجب العبد عن الفهم الصحيح للدين، وفي هذا يقول المصطفى العدنان -عليه أزكى السلام- كما جاء في صحيح الترمذي: «إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتةٌ سوداءُ في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر

صقَل منها، وإن زاد زادت حتى يُغلَّفَ بها قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه: كلا بل ران على قلوبهم».

أخرجه الترمذي (٣٤٠٦)، وابن ماجه في سننه (٤٢٧٨).

فاحرص أن تبتعد عن الشبهات التي تقع بقلبك في الحرام، وأيضًا ابتعد عن كل ما يُزعزِع مشاعرك فلا تستطيع التحكم في قلبك ولا عقلك، ومن أعظم وسائل سكينة النفس لِمَن زعزعت مشاعره وأفرخت عليه وساوسه أن يبتعد عن كل ما له علاقة بتلك المشاعر الجياشة، ولا يترك طريقًا لتلك الزعزعة إلَّا وتخلص منها، لأنها إذا كانت غائبة عنك فلن تخطر على بالك مع مرور الأيام وتواليها، فالابتعاد عن مواطن الصفحات التي تهيج المشاعر أعظم وسيلة للتخلص من تلك المشاعر الكاذبة.

وكذلك الحال في الأشخاص الذين يُحركون النزعات النفسية بدءًا بكثرة التفكير ومرورًا باضطراب القلب ووصولًا لبلبلة الفكر، فانجذاب المرء وإعجابه بشخصٍ في مرحلة ما ليست رخصة للتفلت من القيم والتلفظ بالهراء، والأولى للإنسان ألَّا يُشغِل نفسه بذلك إن كانت الفرصة غير مناسبة بعد حتى لا يجعل مشاعره سبيلًا للعذاب والهوان، ووسيلة لارتكاب المعاصي والآثام، فتلك المشاعر إن ترتبت عنها معصية فلا بد للإنسان من بطولة وجهاد في سبيل الله تحت هذا الإغراء والإغواء.. فأحبب من شئت، وأبغض من شئت، لكن لا تتعدَّ بقلبك خارج حدود العاطفة متجهًا إلى النزوع عن الغريزة النقية!

وأعظم الجهاد ألّا يقترب العبد بقلبه عن مواطن الفتن حتى لا يترك لها مجالًا لتسحبه، وقد جاء في صحيح مسلم عن رسول اللهﷺ أنه قال: «إنَّ الحلالَ بَيِّنٌ، والحرامَ بَيِّنٌ، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمهن كثير من الناس، فمَن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرْضه، ومَنْ وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يَرتَعَ فيه، ألا وإن لكل مَلَكٍ حِمى، ألا وإن حمى الله محارمه»

أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

لذلك مَن حام حول صفحات الفتن يُوشك الوقوع فيها، فالحقُّ سبحانه حين نهى آدم وزوجه عن الشجرة قال لا تقربا، ولم يقل لا تأكلا؛ ليُبين لنا سبحانه أن الاقتراب وسيلة للوقوع في الخطأ والمعصية، وكأنَّ هذا النهي تطبيقًا عمليًّا لمنهج العبودية قبل الخروج إلى المهمة الوجودية، ويكأنَّه اختبار لقلبي وقلبك!

ولذلك حَرِيّ بك أن تراجع نفسك ناظرًا إلى ما يجعلك تنتكس، ويهيج مشاعرك وينتزع تدينك، وتسعى في مسحه من كل مكان يُذكرك به ولا تقترب منه ولا تجعل هنالك وسيلة تدلك عليه حتى لا تقع فيه سهوًا أو عمدًا، وبالله توفيقك.

وأكثر من الاستغفار والتوبة؛ فطالما تسوؤك السيئة، وتُجاهد قلبك لمحوها بعملٍ صالحٍ فهذا دليلٌ صادقٌ على إيمانك بالله رب العالمين، فإن الحسنة العظيمة يغفر الله بها السيئة العظيمة.

واعلم أن أهم ما يعين العبد على التَفَقُّه واكتساب السعادة أن يَحمد الله مع كل علم يَنفَعه، وَفِقه يَدفَعه، وصلاة تَرفَعه، أن يكون الله معه في كل أحوال العبادة وطلب العلم، فإذا تحرك أو سكن أو قام أو قعد كان ذلك كله له لا عليه، وكان في طاعة وعبادة.. وبإذن الله سيكون لنا فيما بعدُ لقاء مع الحمد والشكر.

ولعلّي أَتَذَكر أحد أساتِذتي في الثانوية العامة وهو يستأنف الشرح بحمد الله، وإذا انتهى من شرح المعلومة حَمَدَ الله عليها، حتى إذا انتهينا وصل ما شاء الله له أن يصل من الحمد والشكر! ولقد أضاء لنا شيخنا أبو حنيفة ما أردتُ قولَه في قولِه: «إنما أدركتُ العلم بالحمد والشكر، فكلما فهمتُ ووقفتُ على فقهٍ وحكمةٍ فقلت الحمد لله تعالى؛ ازداد علمي».

فاجتهد في طاعة الله وعبادته لأجل الله لا تريد سواه، واحمده حمدًا طيبًا مباركًا فيه، واحذر من الرياء فإنه مردود على صاحبه، وانظر إلى قول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملًا أشرك فيه معه تركتُهُ وشركَه»

أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «إن الله لا يقبلُ من العمل إلا ما كان خالصًا وابتُغي به وجهُه».

أخرجه النسائي (٣١٤٠).

الشرك الخفي

مرحبًا بك يا صديقي، كيف حال قلبك؟ أرجو أن تعلم أن هذا الكتاب ليس كتابًا فقهيًّا وإنما هي خواطري جراء فهمي لعبادة الله، وفي هذا المقام أردت أن أذكرك بما يُحبِط الأعمال وقد لا تشعر بذلك لقلة الحديث عنها، ولقد كتبت لك ما أعتقده صوابًا، وهي أمور متفق عليها بين الأئمة الكبار، والاختلاف فيها نادر، لذلك وَجَبَ على قلبي أن يُعطيك نبذة عن هذا الشرك الأصغر -الرياء- لعلّه يلمس شِغاف قلبك إن شاء الله في نهاية هذا اللقاء.

واعلم أن الرياء على نوعين:

أحدهما: ألا يريد العبد بتقواه إلا الناس، والآخر: أن يريد الناس ورب الناس، وكلاهما محبط للعمل، لأنه أشرك بالله في أصل العمل، والرياء ضد الإخلاص، وهي مشتقة من الرؤية وهو أن يعمل العمل ليراه الناس.

ومثال ذلك من ذهب إلى المسجد بنية أن يُثنى عليه، وكذلك الحال فيمن يقرأ القرآن حتى يمدحه الناس، ومن يتصدق وهو في نيته أن يُقال عنه: "جوادٌ كريم"، ومن ينشر العلم بنية أن يُقال عنه: "عالمٌ ومثقف"، وقس على ذلك جميع العبادات إن كانت النية لغير الله.

وكذلك من صلى من أجل الله تعالى والنَّاس، فلا تُقبل صلاته، وهي مردودة عليه، وأمَّا من ذهب لأداء فريضة الصلاة بنية التقرب

إلى الله، ولكنه طَوَّلَ أركانها من أجل الناس، ففي هذه الحال يقول العلماء: «ما فعله لأجل الله قُبِل، وما فعله من أجل الناس رد»، وفي هذا المقام يقول رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إياكم وشرك السرائر، قالوا: يا رسول الله وما شرك السرائر؟ قال -عليه السلام-: يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهدًا لما يرى من نظر الرجل إليه، فذلك شرك السرائر».

أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٨٩٦)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣١).

وأمّا من ذهب إلى الصلاة ورجع إلى بيته مخافة أن يراه الناس فهو أيضًا مُراءٍ، لأنه ترك العمل لأجل الناس، فكما يكون الرياء في العمل إذا خالط في قلبك غير الله يكون الرياء أيضًا في ترك العمل لأجل الناس.

وأمَّا إذا عمل العمل لله خالصًا، ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين، ففرح واستبشر بذلك في قلبه؛ لم يضره ذلك بالإجماع، وفي هذا المقام يقول نبينا -ﷺ- حين سُئِلَ عن الرجل يعمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»

أخرجه مسلم (٢٦٤٢).

وقال النووي -رحمه الله- في هذا المشهد: «وهي دليل على رضا الله تعالى عنه، ومحبته له، فيحببه إلى الخلق».

فالإنسان يُؤجر أو يُؤزر بحسب نيته، فينبغي على كل مسلمٍ أن يُحاسب نفسه على الدوام قائلًا لها: ماذا أردتُ بعملي؟ ماذا أردتُ بقولي؟ عسى الله أن يهديه سواء السبيل إلى التقرب إليه تعالى دون شيء آخر من تصنع لمخلوق، أو مدح من الخلق، فالإخلاص هو تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، وهو استواء بين سره وعلانيته، فيتفجر من قلبه ينابيع اللطائف، ويُبَارَك في عمله وحاله، وفي أفعاله وأقواله.

وأيضًا كما أن الرياء مُحبط للعمل كذلك التسميع، والتسميع أن يعمل المرء العمل لله في الخلوة، ثم يُحَدِّث الناس بما عمل، وكأنه بذلك قام مقام الرؤية، فسَوَّى بين الرياء وبين السمعة في إبطال العمل، ولذلك نجد حديث نبينا جامع بينهما، كما جاء عن جندب بن عبد الله عن رسول الله: «من سمَّع سمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به».

أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٨٧).

ونجد هذا الفعل ظاهرًا وبشدة في رمضان حينما يقرأ المرء القرآن أكثر من مرة فتجد على صفحاته في "السوشيال" يكتب للناس أنَّه ختم قراءة القرآن بقدر ما ختم! فما الغاية من إخبار الناس بما بينك وبين الله؟ فإن إظهار العمل للناس ليمدحوه لا يخلو من الرياء أبدًا، ومَالَ الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين إلى أن ما يطرأ بعد انتهاء العمل من التحدث به لا يكون مبطلًا لثواب

العمل؛ بل الأقيس أن يقال إنه مثاب على عمله الذي مضى، ومعاقب على مراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها.

وعلى هذا فالأحوط أن نبتعد عن ذلك حتى لا نخسر أعمالنا الصالحة، وأن نجعل ما نتعبد به لله في الخلوة لا يخرج أبدًا إلَّا ليصعد إلى السماء، وأمَّا حديث النَّاس بما يصنع فهذا من الضياع والهلاك لفاعله!، ويُستثنى من هذا كما قال الفقهاء: المُعلّم الذي يقتدي به الناس فإن ذكر ذلك تنشيطًا للسامعين ليعملوا به فلا بأس.

وتعالوا نقترب في ثبوت وهمّه إلى مجلس رسولنا الكريم، ولنصغ لأبي موسى الأشعري يرويه لنا عن نبيه ﷺ: «أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل، قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»

أخرجه أحمد (٤٠٣)، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣).

فأكثر من هذا الدعاء العظيم ما دامَ الإتيان به سببًا للسلامة من الوقوع في الرياء، ومن الأدعية الجميلة أيضًا المذكورة في هذا الباب: «اللهم إني أستغفرك من كلِّ عملٍ أردت به وجهك الكريم فخالطني فيه ما ليس لك»، فاستوصِ بهذا الدعاء خيرًا لعلك تنجو به إن ذهبت إلى الله ببضاعة مُزجاة!

فاللهم اجعل عملنا خالصًا لوجهك الكريم، واجعل نياتنا دائمًا في رضاك، وطهر أعمالنا من الرياء وطلب الشهرة ومدح الناس، كما نسأل الله أن يجعلنا مُلهمينَ ذوي بصيرة حتى نجد السعادة مِن

حولنا ولا يفوتنا الانتباه لها، وقد جاء في السلسة الصحيحة للألباني أن رسول الله قال: «إذا تمنى أحدكم فليُكثر فإنما يسأل ربه عزّ وجل».

أخرجه ابن حبان (٨٨٩).

يَا ساعيًا فِي جَمعِ السعادةِ غَطّى قَلْبَكَ الخجلُ..
فَاَللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَابِعِ سماءِ تَكفّلَ لَك بِنَسيمِ الرَّاحُ والعسلُ

*****

عبادة السعادة

تحقيق الإنسان على الدوام لنسائم السعادة أينما هلَّ في حياته مُرتبط بعلاقته مع أصل الجمال والكمال سبحانه، فالفرائض الدينية كالصلاة والصوم، والصدقة والقرآن، كلها تمثل مفاتيح السعادة للعبد المؤمن المُتعلق قلبًا وقالبًا بالله، وليست علاقة الإنسان بربه مقصورة على الفرائض الدينية لا غير، فكل فن من فنون الدنيا كتهذيب النفس، وطهارة القلب، وحسن النظافة يمثل عبادة السعادة للعبد المؤمن بشرط أن تكون النيّة خالصة لوجه الله سبحانه.

فكل محبة حانيّة زرعنا بها سنبلة تحيا ولا تموت، وكل حرص على حمل مصابيح الرحمة وبثها في العالمين، وكل بسمة أمل جمعت أصول الحب والرحمة لمن خالطونا الحياة، كلها عبادات يُحبها الله سبحانه، فلنكن نور البسمة لمن شاركونا أركان الحياة.

وذلك أن سعادة النفس مُتعلقة بما اتصف به القلب من صفات حميدة، مُبتعدًا عن العادات الممقوتة، والعبد بذلك يحقق أسمى معاني الحب بينه وبين الله، فسبحانه الذي جعل الطهور شطر الإيمان، وتبارك الجميلُ الذي يُحبُّ الجمال، فمع اتصاف المرء بهذه الصفات الملكية ينال بها محبة مولاه.

فالعبادات اليومية التي يقوم بها العبد المؤمن بقلبٍ مبصر لا بقلبٍ لاهٍ عن الله، تُجدّد أنوار السعادة من حوله بالأخلاق المجيدة، وعلى قدر الإغفال عنها يكون التقليد الأعمى وراء التُّرّهات مما نَمرُ به من الاكتئابات، والإنسان العاقل لا يحيد عن الحق مهما حلكت به الظروف، فمنهاج الله يريد منك أن تكون على الدوام سعيدًا، وذلك بأن تُوفِّقَ بين الدين والدنيا، فترتقي دينيًّا، وتستمتع دنيويًّا بقدر ما سكن في قلبك من الدين، فتشعر بجمال الدنيا كلها من حولك، تُعجبكَ البلاغة، والتلاوة الحسنة، ويؤثر فيك الشِّعر العربي الفصيح، ويتنور قلبك بترديد الذكرِ بعدَ الذكر، وتبتهل لاقتراب قلبك من المسجد، وتشتعل بالشوق لرؤية المبعوث رحمة للعالمين.

فمنهاج الله جاء ليجعلك إنسانًا خُلق ليكون رقيقًا يشعر بجمال الأشياء من حوله، فتتلألأ عليك أنسام السعادة هبوب العافية، وتدور في أفلاكك قلوب أَورثَتكَ الحياء من الله، والتوكل عليه!

فأيام العبد المؤمن لمجرد مرور الجانب الإيماني عليها مُنتهى اللطف، فعلى الإنسان ألَّا يُفوت في أيامٍ كهذه علاقته الطيبة مع الله، وأينما كان الله في قلبه استطعم ينابيع الحياة، فهو سبحانه بما يليق بذاته صاحبٌ في كل شيء وإدراكنا لتلك الصحبة تجعلنا نتجه دومًا إلى الله كلما تسلّل إلى مهجتنا شيء من حطام الدنيا الفانية، فنتحفز لالتقاط كل معنى جميل من حولنا، ونشعر بالسرور بأبسط الأسباب المتاحة، فإن الله يحيي القلوب بصحبتِه كما يحيي الأرض الجدباء التي لا زرع فيها ولا ماء!

فعلى المؤمن أن يوفق بين مطالب الدين والدنيا، فلا ينحرف عن الدين لأجل الدنيا، ولا يستقل بالدين مُضربًا عن الدنيا، فلا دين بلا دنيا، ولا دنيا بلا دين! فكن دائما كما أنت دون تكلّف ولا تصنّع للسعادة، ولا تستبق المراحل لتخسرها كلها، فلقد خُلقت ضعيفًا لتأوى إلى الرحمن لا لتتكلّف بما ليس لك! فاحرص أن تجعل دائمًا من صحبة الله، أسباب صعودك إلى نوره سبحانه.

وإن فاتك إنجازات الدنيا فاحرص ألا يفوتك الإنجاز الأسمى من عبادة الله، فأنت تُعامل ربًّا شكورًا لا يشكر الأعمال الكبيرة فقط، بل حتى مثقال الذرة يشكرك عليها، ويُحسن إليك إذا أحسنت إلى عبيده، ويرحمك برحمتك لوالديك، حتى اللقمة تضعها في فم أهلك تبتغي بها وجه الله تُؤجَر عليها، أليس هذا كافيًا لأن يبعث في قلبك الطمأنينة؟

ثم يأتي قائل ويقول لك: يا شيخ لا تنسَ نصيبك من الدنيا! ونحن في زماننا هذا لا يسعنا القول إلا أن نقول: ولا تنسوا نصيبكم من الآخرة، فإن الدنيا بالبلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالبكاء مرسومة، وبالدعاء مقصودة، وبالأتقياء محفوظة.

وفوق هذا، تجمدت الدموع داخل العيون، وكَثُرت الآفات والفتن كقطع الليل المظلم، وانتشرت الأغاني والمهرجانات، وهُجِرَ كتابُ علّام الغيوب، وكثُرَ القلق والأرق، وقلَّ الوازعُ والرادع، وفشت الفواحش والمظالم، وبات حديث أغلبية الرجال في مجالسهم حول النساء، وجُل حديث النساء في مجالسهن حول

الرجال، وكثرت المعاصي حتى أطفأت شموع الخشية من قلوبنا، وضلّ الناس الطريق، وقلّ الإقبال على ركيزة الوعظ والتذكير، وكثُرت الشتائم، وقلّ الحياء، والناس قد رأوا الدنيا على أنها غاية وليست وسيلة للآخرة، فتكالب الناس عليها وعلى زخرفها الضاري حتى ظن أهلها أنهم قادرون عليها وأنهم مُخلدون فيها، ونسوا أن الدنيا مزرعة للآخرة!

نسوا الوقوف أمام الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، سيسأله الله عن الصلاة والذكر كما سيسأله عن عمله وماله، سيسأله عن كل صغيرة وكبيرة، عن كل زلة لسان إن لم يتب منها، وعن كل ضلال إن لم يُحاسب نفسه عليه، وعن كل كلمة قد أساء بها حق صديقه، أو تنمر بها على زميله، فالكل سيأخذ حقه يوم القيامة لا محالة، فأسرع وأَدِّ الحقوق إلى أهلها، وتب إلى الله من زلات اللسان بالتنمر والغيبة والنميمة، وأكثر في يومك من الاستغفار قبل أن يأتي يوم تُقاد فيه الشاة الجَلْحَاءِ من الشاة القَرْنَاءِ! وفي هذا ما يُضيئه لنا الحقَّ سبحانه في كتابه الكريم:

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

[الأنبياء: ٤٧].

ولنصغ إلى حديث رسول الله ﷺ كما جاء في السلسة الصحيحة: «من كانت الدنيا هَمَّه، فَرَّق الله عليه أمرَه، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له، ومن كانت الآخرة نيَّته جمع الله له أمرَه، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة».

أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٣٤).

فمَن رَكَنَ إلى الدنيا وزخرفها الضاري، ونسي الآخرة ونعيمها الباقي، فويلٌ له، ثُّم ويلٌ له؛ فذلك شرُّ ألوان العبودية والرّق.. ومن اتخذ الدنيا سبيلًا له إلى الآخرة مُستمتعًا بطيباتها كما أراد الله، فطُوبى له، ثُّم طُوبى له؛ فذلك خير ألوان المحبة والشوق، وما أجمل أن نترك الحديث لابن مسعود يصف لنا هذا المشهد بكلماته، فلنستمع له في تركيز باهر فيقول: «إني لأَمْقُتُ الرجل، إذ أراه فارغًا؛ ليس في شيء من عمل الدنيا، ولا عمل الآخرة».

فلا تتوقف في الدنيا ولا تتباطأ في السير، فالحياة فيها الكثير لتفعله، فيها قراءة نافعة للكتب تصنع الفارق في كل شيء، وفيها أعمال صالحة بدءًا بمساعدة الفقراء والمساكين، ومرورًا بسلامة القلب من الآفات والأحقاد بداعي الطيش والخِفَّة، وفيها كتاب الله سبحانه تأنس بجواره، وتتعلم أحكامه وتدرس أقواله، وفيها مساعدة الأهل بالأعمال المنزلية، والترفيه عن النفس بالرحلات الإسلامية، وتعليم الأصحاب معاني الأذكار لله الواحد القهار، وغير ذلك الكثير مما يصنع إنسانًا يجعل لحياته معنى.

أما التسكع في الحياة والانشغال بها عن معاني الوجود، ومن ثمَّ الاستسلام لوساوسها، فنبتعد عن منهج الله جاعلين العقل متشددًا والقلب متمسكًا فذلك هو الخسران المبين، فتبتعد النفس عن الحكمة وفصل الخِطاب، وتلهو وتلعب بالألفاظ القبيحة التي تُميت القلب ولو تبدلت معايير الإنسانية، فتجدها فارغة بلهاء كل ما تحتويه هي "قلشات" الأفلام، و"كويمكسات" المسلسلات التي تسعى في الأرض بالفساد والإفساد، ومن ثمّ تجدها مع صراعات محبين الصيف أم مُحبين الشتاء، ومع الخناقات التافهة الحمقاء عن أبطال المسلسلات، وكأننا في النهاية نُخرجهم من دائرة اللا شيء إلى كل شيء!

فهذا كله من فراغ النفس وانشغالها بسفاسف الأمور الذي هو للمرض العاطفي أقرب منه للمشكلة العقلية، فإن لم تختر أن تحيا كإنسانٍ له قيمة في هذه الحياة على الأقل لا تجعل من بَلَّاعة التفاهة تخرجك من دائرة الإنسان!

واحرص ألَّا ترحل إلى الآخرة ولك أعمال دنيوية تزرع لك من السيئات ما لم تفعلها أنت، فمجرد مشاركتك للأغاني هي سيئات جارية في صحيفتك، وسوف يأتي يوم تجد فيه كل نفسٍ ما عملت من سوء تَودّ لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدا! فوجودنا على وسائل التواصل مؤقت، وما فيها من أعمال سيُحصى علينا أو إلينا، فكن خفيفًا في عبورك، لطيفًا بأخلاقك، لا تسئ لأحد، ولا تؤذِ أحدًا، وكن معطاءً تُحب البناء لا الهدم، تُحَمِّس ولا تُبطِئ، وابتعد بقدر

الإمكان عن الرزايا الدنيئة والألفاظ الرذيلة، وتمسك بالتعاون وبالدعم.. ولله قول الشافعي:

قد مات قَومٌ وما ماتت فضائلهم.. وعاشَ قَومٌ وهُم في الناسِ أمواتُ

وفي هذا المقام يروي لنا أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكُل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقة».

أخرجه البخاري (٢٣٢٠)، ومسلم (١٥٥٣).

فعلى المؤمن أن يطلب الآخرة بعبادته اليومية، وأن يستمتع بما أنعمه الله عليه من متاع الدنيا وطيباتها، كما حكى القرآن لنا:

﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ [القصص: ٧٧]،

وفي هذا النص القرآني منهجًا سويًّا للحياة الكريمة، ومبدأ يُحقق للعبد التوازن بين مطالب الروح والجسد، بل وفي بناء العقائد الإسلامية الراسخة في القلوب، ومتى حاد المؤمن عن هذا المنهج فقد خاب سعيه وخابت بيعته، فقد أوجد الله طيبات الدنيا ليتنعم بها الإنسان على أن تكون وجهته في هذا التنعيم هي الآخرة، فلا يحيد عن عبادة الله ولا ينشغل بمتاع الدنيا عن تكاليف الآخرة.

وذلك أن غاية الدين للإنسان أن يكون إنسانًا!، فكل مُقومات الآخرة من الدين والقيم، والمبادئ والمعروف والخير، وكذلك الحال مع الدّنيا من الاستمتاع بطيباتها؛ نذهب إلى البحر مع صديق، ونتقاسم الحديث مع عشيق، ونأكل المكرونة مع رفيق،

ونتمشى نهارًا مع شقيق، كانت لنا هدىً ونورًا معنويًّا تتلَقَّى منها أرواحنا نفحة من يمين الرحمن، فتتهَلَّل نفوسنا ببشائر العافية والإتقان.

فسعادة العبد لا تُرى ولكنها تُحس، والعارفون بالله هم أعلم الناس بمواطن السعادة من العبادات التي تُقربهم إلى حضرة جلال الله، قال بعض الصالحين: «نحن في لذة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف»، إنها لذة معرفة الله والرضا بقضائه وقدره، لذة دائمة للعبد المؤمن تتجدد يوميّا على قدر إقباله على طاعة الله وخدمة محبوبه، فالسعادة مُتعة تسكن القلب، وتتصل بالعقل، وتلتئم بالنفس.

ولكن ههنا أمر ينبغي علينا التفطن إليه عمّا تكشف عنه طبيعة النفس من درجات التعبُّد والتشدد، وعمّا يَلزم به الدين أتباعه على القصد في العبادات، فالحب يفتح لنا مزيدًا من التألق، والاعتدال يفتح لنا مزيدًا من الشوق، وكلاهما يفتحان لنا طريقًا للسعادة والعافية.

يُحدثنا جابر بن عبد الله فيقول: «كان رسول الله في سفر فرأى زحامًا ورجلًا قد ظُلّلَ عليه، فقال: ما باله؟ قالوا: رجل صائم، فقال عليه السلام: ليس من البر الصيام في السفر، وعليكم برخصة الله التي رَخّص لكم، فاقبلوها».

أخرجه البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥).

فالإسلام لا يقبل تحويل العبادة إلى عذاب، لأجل ذلك يقول نبينا محمد ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن»

أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤).

ورحمة النفس أولى لاستبقاء عافيتها على الطاعة التي يستمد منها العبد راحته ورياحانه، لا عذابه وهوانه!، فالجمع بين خيري الدنيا والآخرة هي غاية الإسلام دون أن يطغى جانب على آخر، ولا يحيف حقٌ على حق، فالتشدد في الدين أمر لا يرتضيه الإسلام، والانحياز إلى الدنيا عن طاعة الله سبحانه أمر لا ترتضيه فطرة الإنسان السوية!

يسمع نبينا -عليه الصلاة والسلام- نبأ الثلاثة الذين شددوا على أنفسهم، فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، ولا أنام منه شيئًا.. وقال آخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر أبدًا.. وقال ثالث: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا.. فلما رآهم النبي أقبل عليهم بقلبه الذي يتحسس الرحمة في كل شيء، حتى ولو كانت المبالغة في الطاعة، ثُمّ قال لهم: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

أخرجه البخاري (٥٠٦٣).

ألا ترى أنَّ الله يريدنا قلوبًا تخشع لا قوالب تخضع، حتى نشتاق لنيل محبته والرغبة في لقائه، وإذا أخطأنا، أو أذنبنا، لا ينبغي أن نتحطم، بل علينا أن ننهض من جديد، وفي هذا المقام، مقام

الخطيئة أحوج ما يكون العبد إلى رحمة الله، وانظر إلى ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية: «ليس من شرط المتقين ونحوهم أن لا يقع منهم ذنب، ولا أن يكونوا معصومين من الخطأ والذنوب؛ فإن هذا لو كان كذلك لم يكن في الأمة متقٍ، بل من تاب من ذنوبه دخل في المتقين، ومن فعل ما يكفر سيئاته دخل في المتقين».

لذلك إذا رجع العبد إلى ربه تائبًا، كان الله الذي لا منتهى لنفحَات حُبّه في انتظاره، فيُبارك له في توبته وكأنها كلمح البصر، يقول لها: كوني مباركة، فتتفتح له أبواب خير ما لها حدود من رحمات الله، فيشتاق العبد إلى تلك المنزلة على الدوام، فيستغرق في الأذكار بروح عاشق كأنه لا ينتمي إلى عالم الدنيا التي يعيش فوق أرضه وبين ناسِه، فيعكف في الحال على قراءة القرآن مُرتلًا آياته، ومجبور النفس بما تَفيئه عليه من محبة وإجلال، فتتفجّر الرحمة في نفسه تفجيرًا، ويَهب الإيمان في قلبه هَبًّا، ويصب عليه أنوار اليقين صبًّا صبًّا. ويكتب الله له من الدنيا ما يكون ثمرة من ثمرات الحب، ولونًا من ألوان القرب، ومائدة من موائد العز والكرم، فيزداد العبد شوقًا إلى القرب، حتى إذا تحرك أو سكن كان كله له بالحسنات لا عليه، وكُتب له بكل خطوة يخطوها للمنّان حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، وعزّ عليه أن يعصي الله بقدر إدراكه لعظمته وجلاله، وبقدر إدراكه لحقيقة عجزه عن شكره وعبادته، مهما ركع وقام، وعبد وصام!

يروي لنا أبو هريرة عن رسولنا الكريم ﷺ أنه قال: «قاربوا وسدّدوا، وأبشروا، واعلموا أنه لن ينجو أحدٌ منكم بعمله، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»..

أخرجه مسلم (٢٩١٦)، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم.

ومع هذا فإن الله شرع لنا الواجبات لننال بها أعلى الدرجات، وجعل إحساننا إلى الناس من أعظم القُربات، ثمّ بَيّن أنّ كلّ عمل صالح يقوم به الإنسان فهو عبادة عظيمة ينال بها محبته، وهذه العبادة بالطبع تشمل كل حركة صالحة في عمارة الكون، وكل كلمة طيبة في تشييد الإنسان، وكل خطوة صادحة تحوي نظافة البُنيان.

وهكذا كل حركة في الكون في الاتجاه الصحيح عبادة، بدءًا ببيتك ومرورًا بمجتمعك ووصولًا إلى قلبك، ومن جعل حياته لله حينئذٍ تهون عليه مصائب الدنيا، ويعيش بنعيم الله بأسباب الله، لا أن يُقبل على العبادات لغرض دنيوي، وإنما إقباله نابع عن حبه لذاتِ الله، فالفرق بين من يُحافظ على قراءة سورة البقرة بشكل يومي محبة في الله وبين من يقرأها بنية دنيوية كالفرق بين السماء والأرض، فإنه ينبغي أن يتقرب العبد إلى الله بقراءة القرآن محبة لله، لا أن يقصد به توصلًا إلى غرض من أغراض الدنيا من مال أو وظيفة، أو ثناء عند الناس وصرف وجوههم إليه، ونحو ذلك!

ومن المهم أن يتفطن المؤمن أن الثواب العظيم ليس مقصورًا فقط على الأمور التكليفية من أركان الإسلام، فالله سبحانه كتب الخير لزائر المريض، والماشي بين الناس بالإصلاح، بل يجازينا إذا

أطعمنا دابتنا بنية الامتثال لأمره تعالى، ونُجازى على إغلاق الباب وإطفاء المصباح عند النوم إذا قصدنا بهما الامتثال لأمر الله، ويجازينا إذا أكلنا بنية الاستعانة على طاعته، حتى كَنْس الشوارع يُجازينا عليها، وإماطة الأذى عن الطريق يُشجعنا على أدائها، واللقمة نضعها برفق في فم أهلنا يُكرِمُنا لأجلها، وهكذا كل ما يتعلق به من منفعة أو إدخال السرور على قلوب من نحب عبادة عظيمة نتقرب بها إلى الله.

*****

غاية الإسلام

حتى إنَّك إذا نظرت إلى كلمة الإسلام تجدها مأخوذة من مادة (سَلَمَ) من بداية السلامة من الفساد، وذلك أن غاية التعبد الإصلاح بين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان والمجتمع الذي يحيا فيه بدءًا بإماطة الأذى عن الطريق إلى مقصده الأسمى من الإحسان حتى يصل بك إلى معاني الوجود ويجعل إحسانك هذا من إحسان الله إليك.. حتى إنّك لتجد الإسلام يرسم لك النظافة الشخصية بكلِّ أشكالِها من باب التقرب إلى الله، بدءًا بالمكان الذي تعيش فيه مرورًا بالأيدي والملابسِ والوجوهِ، ووصولًا إلى نظافةِ القلبِ من أيِّ فكرةٍ لا تسُر، فالإنسان إذا تَطيّبَ ولبس أجمل الثياب ثمَّ ظهرت منه رائحة طيبة فهذا لون من ألوان إظهار نعمة الله على العبد، وكان من أشهر السنن الواردة عن سيدنا محمد -ﷺ- حُبّه للتطيب.

ولو شئت فانظر إلى قول الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ [الضحى: ١١] أي أظهر نِعَم الله عليك في مأكلك ومشربك ورائحتك الطيبة ونظافتك الشخصية على نفسك وعلى أهلك وعلى مجتمعك. لذلك كان من الواجب على كل مسلم أن يُحافظ على نظافته الجسدية وفوق هذا نظافته القولية فلا يقول إلا خيرًا، فكما يُحب أن يَلتَقِط منه الناس نظافته الجسدية كان من باب أولى أن يُلتَقَط منه نظافته القولية، وإذا كانت نظافة الجسد والقول مهمة

عند الآخرين، فإنها عندنا معشر المسلمين من الإيمان، وقدوتنا في ذلك المصطفى العدنان، وفي الحديث الذي أخرجه النسائي وغيره بإسناد صحيح: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب».

أخرجه النسائي (٥)، وابن خزيمة (١٣٥).

لذلك ينبغي على كل مُسلمٍ أن يكون مُغرَمًا بمصفوفة الآداب الشرعية الخاصّة بزينة الإنسان التي تحافظ على جماله ظاهرًا كما تحافظ عليه باطنًا، فنظافة الظاهر وسيلة يُدرَك بها نظافة الباطن من الآفات والأحقاد، ثمَّ كان من باب أولى أن يكون أشد إغرامًا بثواب الله لمن حافظ على نظافته بنيّة التقرب إليه، فالإسلام يُقَدِّس الطُّهر والعفاف، ويحثُ على الطهارة والإتقان.

وبين هذا وذاك يرسم لنا الإسلام صورة من صور رحمته بالمساعدة في الأعمال المنزلية حتى ننال بها أعلى الدرجات في الجنَّة، لأنَّها تؤدي إلى إدخال السرور على أهل البيت، كما ثبت في صحيح الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»..

أخرجه الترمذي (٣٨٩٥)، والدارمي (٢٢٦٠).

لذلك كان من باب التقرب إلى الله بالأعمال النافعة الإصلاح بين الإنسان وبين أهل بيته، يسمع كلامهم، ويجاري حديثهم، ويشاركهم أفراحهم وأتراحهم، ويُساعدهم في نظافة مكانهم، فذلك مما يُشجعهم على التعاون داخل البيت وخارجه.

وكان من باب أولى للذين يُحبون أن يظهروا في أبهى صورة خارج البيت أن يكونوا في داخله أهلًا لذلك الفضل، فعطاء الإنسان ما يملكه من خير للمجتمع إنما جاء من تعاونه مع أهل بيته، لذلك خليق به أن يُساعد في نظافة البيت، ونشر الغسيل، وترتيب الملابس، واللعب مع الأطفال، والجلوس مع الكبار فإن هذا من طباع النفس السوّية التي لا إِشْكال فيها ولا إِبْهام، وفي هذا المقام تقول أُمُّنا عائشة: «كان رسول الله يكون في مهنة أهله فإذا سمع الأذان خرج»، فمن السُنَّة أن يمتهن الإنسان في بيته، وذلك من أنفع الأخلاق التي يحبّها الله لِمَا يتعلق بها من تطهير النفس من الكبر والتجبّر لبناء أسرة على لبنات سليمة تضمن سلامة الود والرحمة.

وخلاصة القول: كن صبيا في أهل بيتك مهما كُنت عالي المَقَام فإن هذا من أخلاق الصالحين الأخيار!

وكان من باب أولى للذين يُحافظون على طهارة الفم خارج البيت أن يُحافظوا على طهارته داخل بيت الله، وانظر إلى حديث رسولنا الذي رواه الشيخان البخاري ومسلم في الصحيحين: «من أكل الثوم والبصل والكراث فلا يقربن في مساجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الأنس»..

أخرجه البخاري (٨٥٤)، ومسلم (٥٦٤).

وغير ذلك من آداب تحرّي مواطن الطهارة في المنظر والرائحة والنكهة والأقوال والأفعال.

فإذا فهمت ذلك: فاعلم أنَّ الله سبحانه حين أمرك بالعبادة فذلك لِمَا فيه من الخير لك سواء علمت عِلّة الطاعة أم جهلتها، فامتثالك لأوامر الله من إظهار العبودية له وأنت تعلم أنَّ خالقك لا يأمرك بخير ولا ينهاك عن شر إلا لأنَّ هذا هو الخير لك، فتنتفع أنت بعبادة الله، لأن الله هو الغني، والعبد هو الفقير، وما دام الفقير على علاقة طيبة مع أصل الجمال والكمال سبحانه عاد ذلك بالنفع على من شاركه أركان الحياة، ومُذ كان المجتمع بحاجة إلى الحياة، كان الدين الحنيف يتلألأ ليعيد إنسانيّة الإنسان على الصراط المستقيم الذي لا يَضلّ فيه المجتمع ولا يُضل، ولا يَذل فيه ولا يُذَل.

إذن.. فعِلَّة الخلق هي العبادة، وعلّة العبادة أن يسعد كلّ إنسان على حِدَه بالشكل الذي يحيا به مع الله، وهكذا الإسلام يصنع من أتباعه عُظماء، ينشرون الخير في كل مكان، فإن الله سبحانه لم يشأ أن يجعلنا قوالب حديدية لا رأي لنا، بل شرع لنا حرية الحركة الفكرية، حتى نرتفع بتقوانا إلى أعلى مراتب المجتمع الذي جاء الإسلام ليُقِيمهُ على أساسٍ رشيد، وجاء الإيمان ليُنَظفهُ مِن كلِّ بُقعةٍ سوداء عَشعَشت وباضت في القلوب!

*****

موعد مع بيت الرسول!

تعالَوْا نخطف خطفة سريعة إلى بيتِ رسول الله ﷺ في خطوات آمنة مطمئنَّة، ومشاعر مُتهلِّلة واثقة، ولكنْ، قبل أن نكون مع موعد مع بيت نبينا في روعته وجلاله، تعالَوْا نُبصر بيتًا آخر في طريقنا، فهل ترون ذاك الشيخ المهيب الجالس هناك في الظل يتعبد لله في صَوْمَعَته؟ إنه «حُذيفة بن اليمَان» صاحب رسول الله، فلنُصغِ إلى كلماته: «ليس خياركم الذين يتركون الدنيا للآخرة، ولا الذين يتركون الآخرة للدنيا، ولكن الذين يأخذون من هذه، ومن هذه» إذا لم يكن هذا هو العقل، فماذا يكون إذًا؟

وها نحن نترك صومعة شيخنا حُذيفة، مُتجهين إلى بيت رسول الله لنتعلّم منه آثاره المباركة، ونَتَتَبع حياته العظيمة على قدرِ فهمنا، فهلَا أَخذت استراحة مُسافر لتصلي فيها على رسولك صلاة يطمئن بها قلبُك، وتَتهلّل بها أساريرُ نفسك إلى يومِ نُشرَاها وبُشرَاها؟

والآن، ها نحن أولاءِ نقترب، ها نحن على الأبواب..

إنَّ قرآنًا عجبًا يُتلى آناءَ الليل، إنَّ ذكرًا قيمًا نَسمع أطرافَ النهار، إنَّ أهل الدار يُصلون ويَتدَّبرون ويَتأملون.

ألَا تعالَوا نقترب أكثر من مفهوم التعبد لله رب العالمين، كان نبينا محمد ﷺ يرى العبادات كلها خالصة لله، لأجل ذلك لم يكن رسولنا يعتقد أن الحياة مسجد كلّ ما فيها ذكر وصلاة، وإنما

التِذاذه بقُربِ الله في كل جوانب الحياة ليشمل الحياة كلها، في بيته وفي مسجده، وفي سَفرِه ومقامه، فمعَ كثرة مشاغله وتراكم همومه تَراه كثير التبسم خفيف الروح، يُمازح زوجاته ويداعبهن، ويستمع إلى أقاصيصهن.

ذات ليلةٍ، حدّثته السيدة عائشة عن قصة طويلة، تتحدث فيها عن إحدى عشرة امرأة في أيام الجاهلية قد تعاهدن معًا على ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئًا، والقصة طويلة جَدٌّ طويلة، والسيدة عائشة تطيل في الحديث وهو معها يستمع ويتفاعل مع حديثها، وكان من بين القصة رجلٌ اسمه أبو زرع يعامل زوجته بالمودة والرحمة، فأراد نبينا أن يُظهر لها أنه كان مستمعًا معها فقال لها: «يا عائشة كنتُ لكِ كأبي زرع لأم زرع».

أخرجه الطبراني (١٧٣).

وها نحن الآن مع مشهد آخر تَحكيه لنا أُمّنا عائشة تقول فيه: كنت مع النبي في سفر، فسابقتُه فسبقتُه، وبعد مدة تسابقنا سويّا فسبقني، ثم قال: «يا عائشة.. هذه بتلك».

ومع هذه اللطافة ترى نبينا يجلس في فناء بيته بكل تواضع ليخصف نعله ويكنس داره ويحلب شاته، وكان طيَّب البيان، وثيق الإيمان، يُعين المحتاج، ويُغيث المكروب، ويُعامل الناس بوجه ضحوك، ولا يبخل بمشاعره على من يُحب، يقول لسيدنا معاذ: «والله إني لأحبك»، ويقول لسيدنا المقداد: «إن الله أمرني بحُبَّك، وأنبأني أنه يُحبك» ولذلك جاء التوجيه النبوي في أسمى معاني

المحبوبية في حديثه كما ثبت في السلسة الصحيحة: «إذا أحبَّ أحدكم أخاه في الله فليبين له، فإنه خير في الألفة، وأبقى في المودة».

أخرجه الألباني في السلسة الصحيحة (١١٩٩).

وبين هذا وذاك.. كان نبينا محمد أخا الليل يقومه مصليًّا لربه مُعِلنًا الافتقار بين يديه، وكان صديق السَّحَر يقطعه مستغفرًا لربه، وكان جوادًا مِعطاءً يُنفق ماله في سبيل الله ويطعم الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا، وفي هذا المقام، مقام الطاعة والامتثال يُعلن سيد البشر أمام أصحابه أجمعين أن بضع خطوات يمشيها في قضاء حوائج الناس أحبَّ إليه من أن يعتكف في مسجده شهرًا!

ويحدثنا عبد الله بن عمر أن رجلًا سأل رسول الله: أي الناس أحبُّ إلى الله؟ وأي الأعمال أحبُّ إلى الله؟ فأجابه عليه السلام: «أحبّ الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا».

أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٦٠٢٦).

وهكذا رسول الله يكشف لأمّته من أول يوم كيف يسمو الإيمان بأبنائه إن هم طبقوا تعاليمه في شتى نواحي الحياة، ولذلك كان رسول الله يُعطي كل إنسانٍ أفضل الأعمال على حسب طاقته، لأنَّه ليس هنالك عمل أفضل من عمل، إنما هنالك عامل يفعل العمل أفضل من عامل آخر! فقد يُجِيب سائلًا عن خير الأعمال بما يراه

مناسبًا له، ولذلك يجب ألَّا تنظر إلى عملك ولكن انظر إلى قلبك، هل فعلت هذا العمل بقدر ما تملك من طاقة وحب، أم ضيَّعت هذا الحب؟

وَلَم أرَ مِثلَ حُبّ اللَّهِ صحبةً..
نَروي بِه يَبَاس الْقَلْبِ والأزهارِ
لَا غَيَّبَ اللَّه قلبًا عنْ صُحْبَتِهِ..
حَتَّى صَارَ فِي عُيُونِ النَّاس أقمارِ

*****

الباب الثاني

مالت شمسنا للإشراق، ورفعت سُفن النجاة مراسيها للإبحار إلى العالم العلوي مُقتربين أكثر في خشوع من الشعائر الدينية لنشهد أسمى ما عرفت الدنيا من معانيها ومراميها.

مُتجهين إلى الله من كل صَوْب وحدب، سائرين خِفافًا وثِقالًا، وسالكين شبابًا وشيوخًا وفي العُسر واليُسر. زاحمين جوّ السماء برايات الدين التي نُعلن بها توحيد الربِّ حتى نجعل حياتنا بأكملها لله رب العالمين.

فمع الثقافة المنتشرة من حولنا في تضخيم قيمة الإنجازات الدنيوية، علينا أن نذَكِّرَ أنفسنا دومًا بالعبودية لله في إنجازاتنا، وأن الإنجازات الحقيقية هي ما كانت لحياتنا الآخرة، راجين منها كل فانية وباقية!

نَشْكُرُهُ فيشكُرُنَا!

في رحلة قافلتنا المتجهة إلى سعادتها، مع مرور الأيام وتواليها تترسخ عندنا قناعة بأن المُحب أشدّ حرصًا على محبة محبوبه، وكلما كان المُحبُ شاكرًا لنِعَمِ الله عليه كان السبيل إلى محبته ونيلِ زيادته، وبه يكون رضاه، فالشكر على نِعَم الله من سِمات الأتقياء، وطلب المزيد من الله من غريزة الأنقياء، فأهلُ شكر الله هم أهل زيادته، فالشكر لله ذكر، والحمد لله شكر، فمن شكر الله نال النِّعَم، ومَن حمدَ الله زاده الله مِن فضله ومنَّتِه، فإنّ الله يُجازي على الفتيل والنقير والقطمير ما لا عين رأت من قبل.

فسبحان الله ما أعظم كرمه إذا أراد أن يُكرِم، فهو الشكور سبحانه، يشكرنا شكرًا جميلًا، يزرع الفردوس في نيّاتنا نملأ بها رحاب الدنيا تهليلًا وتكبيرًا كنور القمر في عتمة الليل.. فيا لله كم يشدُّ القلب أن يكون دائما على شُكر حسَن، فثمّة شكر يجول بنا في أركان الروح، نُحاكي به في ساحة القدرة الإلهية نزهة من الذكر الحكيم، والشكر القويم، نذكره فيذكرنا، ونشكرهُ فيشكرنا، وليس شُكر الله كشكرنا! وليس ذكر الله كَذِكرنا!

فها هو نبينا مُحمد -ﷺ- يرسم مشهدًا من مشاهد شُكر الله لرجلٍ وَجَدَ غُصْنَ شوكٍ على الطريق فنحَّاه جانبًا، فشكره الله وقَبلَ منه عمله، وغفر له ذنبه بهذا العمل البسيط، وهذا من واسع رحمة الله بعباده، فإن الله يحيي القلوب بشكره سبحانه.

فإلهنا لا يشكر الأعمال الكبيرة فقط، بل حتى مثقال الذرة يشكرها، هذه الابتسامة التي تزرعها في قلوب من تُحب تُجازى لأجلها، حتى وإن كانت الحسنة زنة الذرة فإنه سبحانه يزيدها ويكثرها لصاحبها، فكل صنيعة مهما تكن يسيرة، تدفع عن صاحبها وبالًا كبيرًا، وفي هذا المشهد يحكي لنا أنس بن مالك عن رسولنا الكريم: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء»..

أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٦٠٨٦).

فالكلمة الطيبة رحمة، والنظرة العاطفة عبادة، والصفح الجميل طاعة، وتشميت العاطس مغفرة، فهذه الأعمال مهما كانت بسيطة إلا أنها سبب من أسباب محبة الرحمن، والفوز بالجنان، والنجاة من النيران.

يحكي لنا نبينا محمد عن رجلٍ اشتد عليه العطش يومًا، فوجدَ بِئرًا، فنزل فيها فشرب، ثم خَرج فوجدَ كلبًا يلهثُ آكلا الثَّرى من العطش، فسقى الكلبَ، فشكرَه الله وغفر له، وأدخله الجنة! فهذا المشهد يبين كرم الله تعالى ورحمته فانه لا يُضيّع عمل عامل من ذكر أو أنثى، وإن كان العمل مقدار الخيط الذي يكون في شق نواة التمرة!

فالله ربنا غفور رحيم يعفو ويصفح، ويزيد مَن شَكَره مِن فضله العظيم، فإذا كان المُتفضل سبحانه يغفر الذنوب، ويعفو عن المُذنبين، ويصفح عن المُقصرين، ويقبل توبة التائبين، حينئذٍ يشعر العبد بحلاوة هذه النِّعَم بقدر ما يحمل في قلبه من إيمان

بوحدانية المُتفضل جل شأنه، فيخشع قلبه للمنّان، وتتلقَّى روحه لمسة من يمين الرحمن كحاجة الغريق إلى أَمَل!

والقرآن كما هو دأبه العظيم يجمع لنا أصول الشكر بمصابيح السعادة، ومَحمَدة الحمدِ بينابيعها الصافية، حتى نستلذ بمشاعلها الطريق إلى الله جل في علاه.. يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان: ١٢]

فالشكر هو ينبوع الإيمان في أبهى مظاهره؛ لأنه مقام ليس فوقه مقام، لأنك إن شكرتَ الله على ما أعطاك قبل أن تسأل أُنبِتَ في قلبك مع استحضاره حالة إيمانية من التعلق به لا مثيل لها!

لأنك ساعةَ تستقبل كل أحداث الحياة بالحمد لله باتت روحك نظيفة وبذلك يكون الله دائمًا وأبدًا في قلبك محمودًا.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ [لقمان: ١٢] حكمة أخرى تُبيّن رحمة الله ومنَّتِه، فَمن يشكر لربه فإنما يعود نفع ذلك عليه، ومن جحد نِعَمَه فإن الله غني عن شكره، لا يحتاج إليه، فالله هو الغني عن عباده وهم الفقراء إليه، لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم، من عملَ صالحا عَمَلَه إلى مقام الشكر، وجنى ثمراته لنفسه، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين، فله سبحانه صفات الكمال المطلق قبل أن يشكره أحد.

والإنسان بكثرة شكره لله عظيم الشأن وذلك لأن فضل الله وسِعَ المكان ظاهرًا وباطنًا، المهم أن تكون أنت أهلًا لأن تلِجَ هذا المكان، وأن تكون في معية ربك دائمًا، فعوَّد نفسك وألزمها أن تطرق باب ربها طرق السائل الذين يظن بسيده خيرًا كثيرًا، طرق الذي لا حاجة له في هذه الدنيا إلا باب خالقه، طرق المستغني عن كل شيء إلا محبة مولاه.

ولله دُرُّ الشاعر حين قال:

لا تسألنَّ بُنيَّ آدم حاجةً.. وسل الذي أبوابه لا تُحجب

اللهُ يغضب إن تركت سؤاله.. وبُنيَّ آدم حين يُسألُ يَغضبُ

وفي قول الله تعالى: ﴿ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ ﴾ [لقمان: ١٤] جمعت أصول العِرفان، فجعلَ الله شُكُره متصلًا بالوالدين لأنهما وسيلة في وجوده، ومن شكرَ القليل كان أشدُّ إغرامًا بالكثير، فما دام المصير إلى الله فالجزاء حَتْمٌ لازم من قدر العمل، وهو وعد لمن أحسن في دنياه.

وقد جعل الله الشكر في مقابل الكفر، فقال جلّ علاه:

﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧ ﴾ [إبراهيم: ٧] فشكر النِّعَم ينميها ويزيدها ويعود نفعها على العبد الشاكر، فقال نبي الله سليمان كما حكى القرآن لنا:

﴿ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢ ﴾

[لقمان: ١٢].

فاتجه أيها العبد إلى ربك على الدوام شاكرًا نِعَمَه عليك، فيبادلك الله شكرًا بشكر، ويزيدك بفضله ومنَّتِه من حلاوة المناجاة إلى سواء السبيل الذي لا تُضِل فيه ولا تُضَل، ولا تَذِل فيه ولا تُذَل، ولا تلتفت فيه عن ربك ولا يلتفت عنك ربك، فالقلوب المؤمنة التي سكنتها شُكر الله سبحانه هي القلوب التي تحمل في طياتها معاني الإخلاص، وسكنتها ينابيع الإصلاح، لأنَّ شُكر الله مُصاحب لشكر العبد، فأينما شَكرَ العبد شَكرَ الله، فينشرح صدره بنور الله.

واعلم يا صاحبي مَن جَحَد نِعَمَ الله فلم يشكره عليها فمثله كمثل الذي أسكنته دارك فلمَّا ترعرع جَحَد فضلك عليه، والغافل عن شكر الله أدهى وأمَرّ لأنَّه حُرِمَ الزيادة في العطاء، والصبر عند البلاء، ونزول ملائكة السماء، وفوق هذا كان من الجاحدين لنعم الله الأشقياء، فحاله وحالهم سواء.

لذلك حَرِيّ بك أن تَنتبه إلى شُكر نعم الله عليك في الصباح والمساء، حتى تقترب منك الزيادة، فمن بركات ذاكَ الذكر خفيف اللسان ثقيل الميزان، عظيم الأجر يُرتب تيَه الذات، فثمة حمد يجول بنا في فضاءات القلب، متهلِلًا بين ثنايا الفؤاد، ويذهب بعيدًا إلى مكانٍ ناءٍ في الأعماق، فترانا مع الأحداث التي تحوم بنا ثابتين كالجبال لا تهزنا الرياح ولا الأتراح، فنتخطى الآلام، ونتجاهل

أصوات اليأس مع الأيام، ونتمسك بحبل النور والرجاء بين الأحلام لندخل الجنة بسلام.

فاحرص أن تجعل لك وردًا منه لا تُفارقه ولا يُفارقك، وانتبه ألَّا يمر يومك إلا ولك الكثير من هذا الذكر قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومِن آناء الليل وأطراف النهار، فتأتيك مفاتيح الرحمة فتطمئن نفسك ويهدأ بالك، وبين هذا وذاك، وقبل هذا وذاك، يحنو عليك الكريم سبحانه بالقرب منك.

شُكْرُ الْعَبْدِ لِلَّهِ محمدة عِنْد الْوَرَى..
وَشُكْرُ اللَّهِ يُحيي قلبًا تحتَ الثَّرَى

*****

الأمن والأمان!

جلس نبينا يومًا وحوله جماعة من المسلمين وبينما الحديث يجري، وجَّه النبي بكلماتٍ لمن حوله، ولو لم يذكر رسولنا حديثًا غيره لكفانا وأغنانا، ولنا في تأمله المزيد من الشكر ومَحمَدَة الحمدِ، وهذا الحديث كما ثبت عند الترمذي وابن ماجه عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «من أصبح منكم آمِنًا في سِرْبِهِ، معافى في جسدِهِ، عنده قوتُ يومِهِ، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافِيرها».

أخرجه الترمذي (٢٣٤٦) واللفظ له، وابن ماجه (٤١٤١).

ألاَ تعالَوْا يا أُولِي الألْباب نُبَينُ ما قاله سيد الأخيار الذي جَمَعَ الله له من رؤية الحقِّ ما أضاءت بكلماته مَقادير الإنسانيّة -وعلى قَدرِ وِسعِنَا وطاقتنا.

نقول إن المراد من قول نبينا «أصبح» أي اليوم الذي تستيقظ فيه مُتوكلًا على مسبب الأسباب ورب الأرباب، لذلك ينبغي عليك ألّا تحمل همّ المستقبل، فالأمر أمر الله والخير جميعًا له، وما عليك إلا بأسباب يومك، فخالق الأسباب قد تَكفّل لك بالنتائج والثمار، وهو الذي يدبر الأمر، فتفاءل خيرًا برب الخير.

وقول نبينا: «آمنًا في سربه» هو عين الخير محمولًا على جناح الاطمئنان، أن تكون آمنا في بيتك وفي مسكنك وفي طريقك، ولست مُلاحقًا، ولك مأوى يأويك.. فعوِّد نفسك دائمًا إذا استيقظت صباحًا تتمتع بِبيتك أن تقول: «يا ربّ، لك الحمد»،

وكان سيدنا رسول الله مع كل فجر جديد يقول: «الحمدُ لله الذي عافاني في جسدي، وردّ عليّ رُوحي، وأذِن لي بذكره».

أخرجه الترمذي (٣٤٠١) واللفظ له، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٧٠٢).

لذلك من بدأ صباحه بحمد الله حلّت عليه البركة في كامل يومه، وتقلب من نعيم إلى نعيم بأسباب الله وبواسطة الله.

وقوله عليه السلام: «معافى في بدنه» حكمة أخرى تعد تعليلًا للأمن والأمان وثمرة من ثمراتها، فالأمن هو عين الصحة، والصحة محمولة على جناح الأمان، تستطيع أن ترى وتسمع وتتكلم، تستطيع أن تتذوق الطعام، وأن تتنفس الهواء، فالمعدة تهضم الطعام وأنت لا تدري عنها شيئًا، والقلب ينبض من غير أي تكاليف منك لذلك، والدورة الدموية في جسدك قد حفظها الله لأجلك، لقد حفظ الحفيظ سبحانه عقلك من الجنون، وقلبك من الوقوف، وأعصابك من التلف، لقد حفظ الله يديك ورجليك اللاتي لا قدرة لك عليهم بذاتك، إنما بتذليل الله وعطائه، وبارك لك في توازن جسمك، فلو افترضنا خللًا بسيطًا لأي وظيفة للمخ أو الأعصاب أو الهرمونات سيعش الإنسان جحيمًا لا يطاق!

ولذلك كانت وصية رسولنا بملازمة الدعاء بقولنا: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي»

أخرجه أبو داود (٥٠٧٤)، والنسائي (٥٥٣٠).

وهو دعاء بسيط لا تكلّف فيه ولكنه يحوي خيري الدنيا والآخرة لمن تأمل، لا سيما في مثل هذه الأيام التي كثرت فيها التخلخلات الإيمانية والخزعبلات النفسية، فانظر حالك فيه واحرص على مُلازمته، فالإنسان منا بين مصائب دنيوية يرجو فيها العافية، وبين معاصي قلبية يرجو منها العفو والعافية.

وفي الأحاديث النبوية: «ما سُئِلَ الله شيئًا أحب إليه من أن يُسأل العافية»..

أخرجه الترمذي في سننه.

وقال ﷺ: «سلوا الله العفو والعافية فإن أحدًا لم يُعطَ بعد اليقين خيرًا من العافية».

أخرجه الترمذي (٣٨٨٥)، وصححه الألباني.

وفي قول رسولنا -عليه الصلاة والسلام-: «عنده قوت يومه» عين الرضا والشكر، فهو سبحانه لمن دعاه قريب، ولمن سأله مجيب، وما خطونا له حمدًا واحدًا إلا وأسبغ علينا وفاقنا بالنعم، فحمدًا لك يا ألله على صحة العينين والأذنين، وعلى نعمة الأمن في البيوت، وعلى كل خبزٍ يكفي لإطعامنا، وعلى كل عملٍ صالحٍ يرزقنا إخلاصنا.

لذلك ما نجده من أغلبية الجُهال عن تقسيمهم الكليات إلى قمة وقاع، ومِن ثمَّ المهن إلى مهن شريفة وأخرى حقيرة فهذا جهل وسوء أدبٍ مع رزق الله، فليست هناك كُليات قاع ما دام المُجتمع في حاجة إليها، ولا تستقيم حركة الآخرين إلا بها، فنحن بحاجة إلى

الطبيب، والطبيب يحتاج إلى موظف الصرف الصحي، ولو تعطلت حركة عمَّال الصرف الصحي ليوم واحد لأصبحت الدنيا خَرَّارة!

وهكذا يرتبط الناس ارتباطَ حاجةٍ، لا ارتباطَ تفضُّل، فكل الكليات قمة، وكل الأعمال ناجحة ما دامت تفيد المجتمع، ولا بدَّ أن تتساند حركاتهم لا لتتعاند، وإلا لتفانى الخلق، فأنت مفضَّل فيما لك فيه موهبة، ومفضول عليك فيما لا موهبة لك فيه.. أمّا من يرى غير ذلك فهذا جهل مركب لا علاقة له بعلم ولا يحزنون، لأنه نتج من المثالية الساذجة التي تصنع في المجتمع أُناسًا يضربون ثمّ يتألمون، وعلى حد القائل: (ضربني وبكى، سبقني واشتكى).

وقول نبينا: «قد حيزت له الدنيا بحذافيرها» بَيّنَ لنا أن الحياة أبسط من أن تحتاج إلى تكلّف الرزق والسعادة، فقد حيزت الدنيا للغني والفقير كلٌّ على قدر فهمه وتفكيره، وقد يرى الفقير غناه في رضاه، وفي عباداته اليوميّة، وعلى قدر رزقه اليومي لأنه يعلم أن ما عند الله خير وأبقى، وفي هذا المقام يقول لقمان الحكيم: «عيش الفقير مع الأمن خيرٌ من عيش الغني مع الخوف».

ولنترك حديثنا الآن ولْنَدعُ شاهد عيانٍ يحكي لنا عن الرجل الذي جاء لعبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- يسأله: ألسنا من فقراء المهاجرِين؟! فقال له عبد الله: ألك بيت تسكنه؟ قال الرجل: نعم.. قال: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم.. قال: أنت من الأغنياء.. فقال الرجل: ولي خادم يخدمني: قال: أنت من الملوك!

رواه مسلم في صحيحه.

وتعالوا نذهب في رحلة سريعة مع سيدنا بلال بن رباح ليَخطِبَ لنفسه ولأخيه زوجتين، وها هو ذا بلال جالس هناك بجوارنا تحت ظل السقف أمام أبيهما، ولنُصغِ إليه وهو يروي لنا بقية النبأ: «أنا بلال، وهذا أخي، عبدان من الحبشَة، كُنَّا ضَالَّين فهدانا الله، وكُنَّا عَبدَينِ فأعتقنَا الله، إن تُزَوِّجُونا فالحمدُ لله، وإن تمنَعُونَا فالله أكبر!»

هكذا فَهَمَ أصحاب رسول الله الدنيا بحذافيرها راضين بما أعطاهم الله منها، ومُشتاقين إلى رؤية نوره، وهذا ما لخصه نبي الإنسانية في حديثه الذي أخرجه الترمذي: «ما لي وما للدّنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استَظلّ تحت شجرة ثمّ راح وتركها».

أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩).

فاعلم أن أعظم ما يُعينك في سفرك إلى الله أن تحمل في قلبك الرضا به على الدوام، فإن أكثر الأرواح سعادة، وأكثر النفوس راحة هي التي تحمل العرفان لعطايا الرَّبّ بداخلها، ثم حسبك هذا الحديث الذي رواه لنا مسلم: «قد أفلح مَن أسلم، ورُزِق كَفَافًا، وقنَّعه الله بما آتاه».

أخرجه مسلم (١٠٥٤).

فخذ الدنيا من أقرب وجوهها شاكرًا نِعَمَ الله عليك، فإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وعش في الدنيا مُتأملًا في نزول المطر حاملًا في ثناياك أمطار الأشواق بما

عند الله سبحانه، وتدبر في معاني القرآن، وكن حيًّا في شعورك تجاه من تُحب وإياك وبرود المشاعر، وكن ثريًّا بأخلاقك، غنيًّا بتواضعك، وإياك وكثرة الخُطى تجاه من أفسد قلبك، وتحلَّ بالرُقِيّ في حديثك، وابتعد عن العادات الممقوتة والألفاظ البذيئة فالمسلم ليس بالسَّبَّاب ولا بالفاحش ولا بالبذيء.

واحرص أن تكون بسيط السجيّة للناس وعظيم الجوهر لمن تُحب، حتى يألفك الناس بروحك الهادئة الناعمة، ويألفك أهلك عظيم الشأن من شخصيتك اليانعة.

وتجَوَّل بخاطرك نزهة في ساحة القدرة الإلهية فتشعُر روحك بالدفء، ويتدَثَّر قلبك بدفَّات الطمأنينة، فشيئا ما يتنزل عليك في سفرك إلى الله يجعلك ترتدي ثوبًا غير ثوبك، كأنّ الروح تغتسل من بعد قحط وجفاف، فأشرقت أراضينا بنور ربها، وامتلأت أرواحنا بنسائم سعادتها.

فإنما نحن مارون للآخرة لا مقيمون في الدنيا، وما أهل الدنيا في شتى الأزمان والعصور إلا سائرون إلى القبر، كلما انتهى قوم من دخوله وجدوا أنفسهم أمام الأبدية حيث الجنة أو النار..

فطوبى لمن سار على نهج المُحبين شاكرين نِعَمَ الله عليهم، فينادي الحبيبُ: يا رب، ويجيبه المحبوب: يا عبدي لبيك!

*****

لُغَة!

بعدما غابت شمسُه للأبد، أشرقت من جديد!، بعدما ظنَّ أنَّه هالك لا محالة جاء أحدهم بكلمة واحدة زرعت في قلبه النجاة، وغرست في صدره الحياة!

لقد علَّمتني تجارب الحياة بوجود الكثيرين من حولي ينتظرون كلمة واحدة للعودة.. ينتظرون كلمة واحدة للحياة!

فيا صديقي لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسطًا، تكن محبوبًا عند الناس كأمٍّ ترقب الخطوات الأولى والأخيرة لصغيرها الوحيد!

*****

من بين كل الأفكار التي ماجت بتفكيري، وهاجت بخاطري حول علاقتي بالله سبحانه: كيف بإمكاني أن أترك أثرًا طيبًا في قلوب من شاركوني الحياة دون تكلف ولا تصنع؟

ألا يوجد عبادة يسيرة أفعلها لتزرع في من حولي مصابيح محبتي، وينابيع قلبي، وفوق هذا أنال بها رضوان ربي؟

وما إن لبثتُ قليلًا حتى وجدت حديثًا يرويه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ يقول فيه: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات»..

أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٧٨).

يا ألله، منزلتي ترتقي درجات وما كان مني مزيد صلاة ولا صيام، إنما بكلمة!، كلمة يُمكن لها أن تُعيد الحياة لصاحبِ الحياة، كلمة تحمله إذا كلّ، وتدفعه إذا ملّ، وتعالج ثقوب الجراج في قلبه إذا قلّ!

فكل كلمةٍ طيبةٍ لونٌ من ألوان الشكر لله سبحانه، وثمرة من ثمرات الإحسان التي يُجازي عليها الله بالحُسنى، فالكلمة الطيبة تُسعد القلوب، وتُحفّز العزائم، وتملأ الصُّحف أجرًا، وتُهدي النفس أمنًا، فكما يتسلّل خيط النور في ثقوب الظلام، كذلك تتحول آثار الكلمة الطيبة إلى شموسٍ تأخذ أماكنها العالية في حياة من نُحب ناشرين بكلامنا قيم الحق والإيمان، ومبادئ الخير والإتقان!

ولنا في نبينا قدوة حسنة، فكان يسعى في تعليم أصحابه فن العطاء بكلامهم ما يعجز عن رسمه الألوان، فالتمعت في نفوسهم بشائر العافية والإحسان، وتَلقَّت أرواحهم لمسة من يمين الرحمن، وتَهلّلت أسارير ثقيلي الخطى نحو المنَّان، فمع مرور الأيام وتواليها لن نجد أحسنَ ممن كابدوا الحياة وظلوا مُتمسكين ببلاغة حديثهم، وحسن أخلاقهم.

وكان سيد الأخيار يُحب فصاحة الأحاديث، ويرى بلاغة القصائد، ولا يبخل بمشاعره على من يُحب، يقول لأبي موسى: «لو رأيتني وأنا أستمع إليك البارحة، لقد أوتيتَ مزمارًا مِن مزامير آل داوود».

وذات يومٍ أقبل عليه رجل لم يكن رآه من قبل، غير أنه سَمَعَ أن «مُحمدًا» يَدعو إلى دين جديد، فحمل سيفه وأقسم ليُسوّيَنَّ مع رسول الله حسابه، ومع أول لقاء يجمعه برسول الله مستمعًا لكلماته، يقول له: «يا محمد: والله لقد سعيت إليك، وما على وجه الأرض أبغض إليّ منك، وإنّي لذاهب الآن عنك، وما على وجه الأرض أحبّ إليّ منك!»

ثُمَّ ها نحن الآن مع مشهد آخر من مشاهد الرحمة واللين.

ذات يوم أَقبَلَ رسول الله على أحد أصحابه وقال له: «يا أبا أيوب.. ألا أدلك على تجارة؟ ألا أدلك على عمل يرضاه الله ورسوله؟ قال أبو أيوب: بلى يا رسول الله، فقال -ﷺ-: صِلْ بين الناس إذا تفاسدوا.. وقرِّب بينهم إذا تباعدوا».

أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وحسنه الألباني (٣٨١٨).

فكُلّما كان كلامك طيبًا تُخفف به جراح آلامَ من حولك، كان قلبك ملائكيًّا وكنت في تجارة مع الله رابحة، وبين هذا يُحبك الله، وإذا أحبك الله ازدهرت في قلبك نسائم السعادة كما تزدهر البذور في مزرعة طيبة التربة والماء، وكلُّ هذا بتحريك لسانٍ وتأمل قلبٍ بكلمة طيبة تُحيي في القلب ألف ابتهال، كلمة أصلها ثابت وفرعها أعالي الجبال!

وها هو نبينا يرسم مشهدًا من المشاهد الفاتنة التي تبهر الأبصار بجمالها، وتُثري الأرواح بدلالتها ليرينا أن محبة الله إذا جاءت لا يقف في طريقها شيء، وها هو أبو هريرة يرويه لنا: «إن الله إذا

أحب عبدًا نادى جبريل.. فقال: إني قد أحببت فلانًا فأحبه.. فيحبه جبريل.. ثم يُنادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه.. فيحبه أهل السماء.. ثم يُوضع له القبول في الأرض»

أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٣٧).

يا ألله.. مجرد التحليق بأن الله يُحبنا، آخذٌ بمجامع القلب إلى بشائر الحب التي تتألق في نطاق السعادة، وذلك لأن الحب يفتح لنا مزيدًا من الراحة بأن نكون على خلقٍ حسن، ولسان طيب نأمر به بالمعروف وننهى به عن منكر، فلا تُفارقنا نسائم السعادة التي تحيا لأجلنا ولا تموت!

ذاتَ يومٍ يُمسك نبينا بيدِ معاذ بن جبل، ويقول له: «يا معاذ: والله إني لأحبك فلا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»..

أخرجه أبو داوود في صحيحه (١٥٢٢).

لم يكن سيدنا معاذ يعلم أنه على موعد مع أجمل كلمة تسمعها أذناه!، لقد أراد النبي تعليمه ذِكرًا من أذكار الصلاة فأسبقها بخبر المحبة حتى لامست صدره المتوهج، وفؤاده المتوثب فكانت له كالجزيرة الآمنة من البحر الهائج!

فما بظنك..

موقع خبر المحبة من سياق الكلام؟

ما موقع تلك المحبة من الإعراب؟

ما المعنى الذي خرج مِن خلالها إلّا لنتأمل أنه كُلّما كان حظ طالب العلم من كلام خفيف على القلب، كان التِذاذه بما يعين على العلم أَوفى وأنفع!

ذات يومٍ وأنا في الثالثة مِن دراستي في الجامعة، إذ جاءتني رسالة من دكتور نبيل شلبي -في كلية الهندسة جامعة المنصورة- يُخبرني فيها أنه نشر أحد "فيديوهاتي" كنموذج ناجح لطلبة كلية الهندسة على موقع المنصة التعليمية، قائلًا عني كلماتٍ فاضت بها نفسي بكل ما في الدنيا من بهجة وفرح.. لقد كانت مجرد دقائق، ولكنها مَثّلَت لي حياة كاملة لا منتهى لأحلامها، ولا غاية لأمجادها!

فحيَّاك الله يا دكتورنا، فكم نتمنى أن يكون هذا هو دأب المُعلّمين، على الدوام، ونرجو أن يكون هكذا كلّ من ولّاه الله على أُسرةٍ، أو مكانَ علمٍ أن يكونوا جميعًا في تواضع الصالحين وروعتهم، وفي تفانيهم ومحبتهم، ولو أنَّك تحسست مَن حولك ممن تمسّك بذلك، ثم شاهدت أثرها عليه، تجد والله عجبًا!، فمن أجمل مهارات الكلام أن تكون مبدعًا في مدح صواب الآخرين، فتنساق من أجلك نسائم السعادة، ويحبك الله رب العالمين.

فما بينَ الحِين والآخَر يحتاجُ المرء إلى أن يستمع إلى كلمات تُحركه، يحتاج إلى من يُذَّكره دومًا بقوله: «لا تقلق، أنا هُنا بجانِبك ولأجلِك»، يُذَّكره بأنسام المطر وإن لم يُشاهد الغيوم، وبالسعادة إن غابت عن عينه نسائمها.. يُبشره بالمِنَح إن زادت المِحن،

وبالفرجِ إن زاد الكرب، وباليسر عند العسر.. فما بين الحين والآخَر نحتاج إلى مَن يُبشّرنا بالخير فلا يلقانا الناس إلا كبشائر الخير!

لأجل ذلك مَن أحبَّ الله بصدقٍ ويقين كانت غريزته هي التصرف الوديع باختيار أنسب الكلمات وأزكاها، فينال منزلة طيبة في قلوب الخلق في أسمى معاني الرغبة لا الرهبة، ويسمع اسمه يُنادى عليه كنداء النجدة لا كعويل العاصفة، وبين هذا تقوم علاقة الناس به على أساس من الطمأنينة لا الفزع، ومن السكينة لا الجزع، فينال الإنسان مع كل كلمة طيبة يحملها أشرف المنازل عند الله وعند الناس.

ولهذا رسم لنا نبينا محمد صفة عظيمة يتحلى بها قلب المسلم كما جاء في الصحيحين:

«المسلم من سَلَمَ المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»..

أخرجه البخاري (١٠) واللفظ له، ومسلم (٤٠).

ولعلَّ هذا هو السر في أن سيدنا رسول الله ﷺ كان يقول: «طوبى لمن ملك لسانه، ووسعه بيته، وبكى على خطيئته»

أخرجه الألباني في صحيح الترغيب (٢٨٥٥).

*****

مدرسة رسول الله

لنترك حديثنا قليلًا ولنذهب بقلوبنا إلى مَدرسةِ رسول الله؛ هذه المدرسة التي أخرجت أبطالًا عظماء كأبي بكر وعمر، وعثمان وعليّ، وطلحة والزبير، هذه المدرسة التي أضاءت الدنيا شَرقًا وغَربًا برِفعة النفوس ما أشرقت بهم مقادير الإنسانيّة.

يُقبل نبينا ذات يومٍ على «المِقدادُ بنُ عمرو» أَوَّل فُرْسانِ الإسلام، ليخبره بما سكن في قلبه تجاهه، فيقول له: «يا مقداد، إن الله أمرني بحُبَّك، وأنبأني أنه يُحبك».. يا مقداد يا صاحب رسول الله: يُمكنك الإبحار إلى العالَم الآخر في بهجة، فلله أنت يا مقداد، لله أنت!

وهذا «أبو عُبيدة بن الجرَّاح» قادًما على رسوله بقلبٍ قد رأى الحق يتفجَّر من جوانبه، والنور يتلألأ بين ثناياه، فيُمسك نبينا بيمينه ويقول له: «إن لكل أمَّة أمينًا، وإن أمين هذه الأمَّة أبو عبيدة بن الجرَّاح».. أتساءل.. كيف نام سيدنا عبيدة ليلته؟

وكيف كان قلبُ سيدنا «سعدُ بن أبي وقاص» حينما مدحه الرسول أمام أصحابه قائلًا: «هذا خالي.. فَلْيُرِنِي امْرُؤ خالَهُ!».

وبين هذا وذاك..

كان رسولنا الكريم يُلاحظ بلاغة القصيدة الجَزْلة ويتفاعل معها، يُقبل عليه «عبد الله بنُ رَوَاحَة»، ذاك الشاعر الذي ينطلق الشِّعر من بين ثناياه عَذبًا قويًّا، ومع أقرب لقاء بينهما يسأله رسوله

مُعبِّرًا عن حبه لشِعره وبلاغة حديثه: «كيف تقول الشِّعر إذا أردتَ أن تقول؟» وَكَأنها برذاذٍ يملأ قلب ابن رَوَاحة بالحياة!

ومع شدة حرص المصطفى على إرشاد أمّته إلى الكلمة الطيبة، كان يبتهج ابتهاجًا عظيمًا بالكلمة الحلوة تُقال له، أو تقال عنه.

بينما كان يجلس في فناء بيته يومًا يخصف نعله، وبجواره تجلس زوجته أمّ المؤمنين عائشة الصدِّيقة، فرأته يُعاني خصف نعله في مشقة، وجبهته تتقصد عرقًا، فنظرت إليه وقالت يا رسول الله وكأنّك المَعْنِيّ بقول الشاعر، وإذ بالنبي تتألق عليه ابتسامة من نورٍ، ويقول لها: وماذا قال يا عائشة؟

قالت:

ومُبَرَّأً من كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ... ورَضَاعِ مُغْيِلَةٍ وداءٍ مُعْضِلِ

وَإِذا نَظَرتَ إِلى أَسِرَّةِ وَجهِهِ... بَرَقَت كَبَرقِ العارِضِ المُتَهَلِّلِ

فيضحك سيد الأخيار لكلامها ويُقَبّلُها بين عينيها، ويقول لها: «يا عائشة، ما سُرِرتِ مني كَسُرُوري منكِ».

هكذا كان نبينا محمد مُلهِمًا، نافحًا ينابيع الحياة في قلوب أصحاب الحياة، وكأنَّ قُدرته العظيمة على محبة الناس يضاهيها قدرته على رفعة شأنهم بكلماته تجاه قلوبهم.

هكذا ينبغي أن نحيا في هذا الكون الواسع مع مَن نُحب، فلولا الكلمة الطيبة لباتت أرواحنا جدباء يعلوها تيه الوحشة البلهاء، فالحمد لله أن زرع في ألسنتنا الخير، وجعلَ أحبَّ الأعمال إليه

سرورًا ندخله على قلب مسلم، فجعل إحساننا للناس كإحسانه سبحانه إلينا، وأحبّ الأعمال إليه ما كانت خالصة لنا، يُشجعنا الله على جبر خواطر الناس وإسعاد قلوبهم حتى تُصبح كلماتنا كالشمس قوة وبعدًا، ونارًا ونورًا، نُضيء بشمسنا كل من التمس منّا الضوء، ونُدفِئ كل مَن التمس منّا الدفء.

فسبحان الرحمن الذي رفع الكلمة الطيبة إلى أعلى عليين، وتبارك المنَّانُ أحسنُ الخالقين.

طُوبَى لِمَن كَانَ كَلَامُه عذبًا.. يروي به فُؤادَ القلب وسهَّلا
فبعضُ الناسِ كالغيثِ كلامُهُم صبًّا.. يَسقي القلوب محبة وودًا

*****

أعشاب الحياة الضارة!

بينما كان حديث نبينا يجري:

«إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالًا يرفعه الله بها درجات»

أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٧٨).

إذ تهلّلت وجوه الصحابة في الحال، وأُرْهِفَتْ آذانهم، ونادى الناس بعضهم بعضًا ليستبشروا بما يحمله حديث نبيهم من خير لهؤلاء القلوب ثقيلي الخُطى حتى أشرقت بهم مقادير الإنسانيّة، وأخذ يقترب من مشارف قلوبهم عاصفة تكنس رمال الجاهلية اللاهبة!

ولكن سُرعان ما كان للحديث بقيّة يا رفاق، ففي هذا المشهد يُدرك رسولنا خطورة الكلمة الخبيثة جدها وهزلها.. ولْنُصْغ إلى أبي هريرة يُكمل لنا الحديث:

«وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يُلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم!»

أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٧٨).

كلمة واحدة لا يُلقي لها العبد بالًا، ولا يتفكر في عاقبتها التي يترتب عليها، ولا يتخيل أن هذه الكلمة لها تأثير بالغ بالسوء على النفوس البشرية.

فكم من أسرةٍ تشرّدت من كلمةٍ جافية
وكم من صداقةٍ فُسِخَت بكلمةٍ قاسية
وكم من فِتنةٍ نُشبت لكلمةٍ بالية!

فأشد العوامل فتكًا في المجتمعات البشرية هي الآفات الخُلقية، والألفاظ المنحرفة، والأقوال الشاذة، بل إن تأثيرها في هدم النفوس أشد من انتشار الأوبئة! وما التفريط الذي نحياه في زماننا هذا إلا وسببه عدم إدراكنا لخطورة الكلمة الخبيثة، وعدم إقبالنا المستمر على ركائز الدين التي تُحدث في القلب مشاعر الخوف والحذر.

ذات يوم، والنبي جالس مع عائشة، إذ ذَكَرَ زوجته «صفيّة» بخير، فلامست الغيرة قلب السيدة عائشة، حتى ترجمتها في قولها: حسبُك من صفيّة كذا وكذا، ووصفتها بأنها قصيرة فقط، كانت تلك العبارة التي ألقتها السيدة عائشة ولم تزد، ولكن سُرعان ما اهتز لها كيان نبي الرحمة، ثم قال لها:

«لقد قلتِ كلمةً لو مُزجت بماء البحر لمزجته!».

أخرجه أبو داود (٤٨٧٥) واللفظ له، والترمذي (٢٥٠٢).

ألا تعالوا وانظروا يا أولي الألباب، يسأله أحد الصحابة يومًا كما جاء في صحيح مسلم: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ فيجيبه عليه السلام: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه»..

أخرجه مسلم (٢٥٨٩).

هكذا رسول الله ﷺ يُدرك مدى خطورة الكلمة، وما يترتب عليها من عواقب وعراقيل، فكما أن الكلمة تبني النفوس، بها تُهدم القلوب!

بل الأعظم من ذلك، ونسأل الله أن يُعافي شباب المسلمين، هو انتشار الشتائم بين الأصدقاء، ويكأن رابطة الصداقة تسمح للإنسان أن يَسُبَّ صديقه بأقبح الشتائم والسُّباب، ويرد عليه صاحبه مُبتدأً حديثه بالشتائِم، ثم يبتسمان ويمرحان ويُكملان حديثهما!

أي جهلٍ بالدين هذا؟

وأي سوء أدبٍ مع شعائر الإسلام التي جاءت لتُنير الدروب، وتُسعد القلوب؟

والأدهى من هذا، من كان حديثه -سواء كان مازحًا أو جادًّا- مليئًا بالشتائم، بل ويجد مُبررًا لنفسه بحكم الصداقة أن يسب صديقه تحت شعار المزاح وخفة الظل! والأمرّ من هذا وذاك، مَن يستمرئ ويقبل أقبح الشتائم على والديه!

أين نحن من حديث رسول الله ﷺ الذي جاء في صحيح البخاري:

«إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه. قيل يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يَسُبُّ أبا الرَّجُل، فيسُبُّ أباه، ويسُبُّ أُمَّهُ».

أخرجه البخاري (٥٩٧٣).

ثمّ سُرعان ما يضرب سيد البشرية مثلًا حتى يُنقي العلاقات الإنسانية من كل أعشابها الضارة، وأشواكها المؤذية، وفي هذا المقام يقول -عليه أزكى السلام-:

«المُستَبَّان شيطانان، يتهاتران ويتكاذبان»

أخرجه ابن حبان في صحيحه (٥٧٣٦)

وذلك لأن المسلم ليس بالسَّبَّاب ولا بالفاحش ولا بالبذيء!

وذات يوم، يسأل النبي أصحابه كما رواه لنا أبو هريرة: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال عليه الصلاة والسلام: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفكَ دمَ هذا، وضربَ هذا، فيُعطي هذا من حسناتِه، وهذا من حسناته، فإن فَنيت حسناتُهُ قبل أن يُقضى ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طُرِحَ في النار».

أخرجه مسلم (٢٥٨١).

ولعلّ أغلبية الشباب إن حاسبوا أنفسهم اليوم قبل أن يُحاسبوا لوجدوا أنّه لا ينقضي عنهم يوم إلا ويجري على ألسنتِهم من الشتائم ما يستوفي جميع حسناتهم حتى وإنّ كانوا مواظبين على صيام النهار وقيام الليل!

ومن أدهى ما نراه في هذا المقام هو تدمير دهشة الآخرين بكلماتنا التي لا معنى لها، فنسلب المندهش لذته بألفاظ قد تُدمر الإنسان إن لم يقبلها، بل ونسلبها منه سلبًا بعد سلب، فألفاظنا يجب أن نتحراها عندما يأتي إنسان يطلب رأينا أو يستعير فِكرنا، فتلك الألفاظ السيئة ليست من العُرف ولا من الشرع ولا في طبق اليوم حتى!

وانظر إلى سيدنا معاذ بن جبل يسأل رسوله يومًا: وإنّا لمُؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال -عليه السلام-: «ثكلتْك أمُّك يا معاذ وهل يُكبّ الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟»

أخرجه الترمذي (٢٦١٦).

فكما ترتقي الكلمة بالعبد إلى أعلى عليّين، أيضًا تهوي به إلى أسفل سافلين!، وذلك لأن تعاليم الإسلام جاءت لتُلغي الإنسانية الفاسدة، وتحمي أعراض الناس، وتدفع عنهم كل لسان ثرثار.

ولعل ذلك هو السر في قول نبينا للرجل الذي جاء يسأله عن العمل الذي يدخله الجنة، فيقول له: «لا تغضب، ولك الجنة».

أخرجه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٧٤).

وفي مشهد آخر في صحيح الجامع يقول -عليه السلام-: «ألا أخبركم بمن تُحرم عليه النار؟ تُحرم على كل هيّن ليّن سَهل، قريب من الناس».

أخرجه الألباني في صحيح الجامع (٣١٣٥).

فلتُصغ يا صديقي إلى همس ضمائرك، إلى متى ستظل تقبل شتائم أصحابك -حتى وإن كانوا مازحين- ولا تضع حدًّا لذلك؟

عجيب والله من يستطيع النوم دون أن يتخيل مدى ما أطلقه لسانه من حرام!

عجيب والله من يقبل على والديّه الشتائم حتى وإن كانوا يمرحون ويلعبون!، ويلٌ للمَرحِ إن كان هذا شعارُه، وَويلٌ للعبِ إن كان هذا سفاسفه! وكم هو مخيف انتشار الشتائم واسْتِسَاغة الكثير لها!، فذلك من أسباب بُغض الله لتلك الفئة!

وانظر إلى حديث رسول الله، يقول فيه: «إذا أبغض الله عبدًا.. نادى جبريل.. فقال: إني أبغضت فلانًا فأبغضه.. فيبغضه جبريل.. ثم يُنادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه.. فيبغضه أهل السماء.. ثم تُوضع له البغضاء في الأرض».

أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٣٧).

فأي حسرة للعبد إن فقد محبة الله، وكان ممن يبغضهم الله وملائكته والمؤمنون بسبب كثرة تلفظه بالشتائم.. فمن كمال الأدب مع الله أن يحترم الإنسان شكل أخيه المُسلم، فلا يقولَنَّ كلماتٍ تَجرح مشاعره في أشياء لا دخل له فيها؛ كَمَن يتنمّر على

وجه صديقه، ويعيب على جسم زميله فإنَّ هذا والله لَمِن الألفاظ المُنكرة التي ينبغي على المسلم أن يتحراها لِمَا فيها مِن إساءة الأدب مع الخالق قبل المخلوق، وكما قال السلف والخلف في الأسفار والأعمار: أتعيب الصنعة أم تعيب الصانع؟!

وما جَرَى مجرى هذه الآفات من حصائد اللسان بدوافع الخِفَّة والطَّيْش من أقوال تُبرَق بغير براقِعها لتهوي بصاحبها في أسفل سافلين، فتب إلى الله يا مسكين!

وقد رُوي من حديث أنس في جامع الترمذي: أنه تُوفي رجل من الصحابة، فقال رجل: أبشر بالجنة، فقال رسول الله: «وما يدريك؟ فلعله تكلم فيما لا يُعينه، أو بخل بما لا ينقصه».

أخرجه أبو يعلى في مسنده، وابن أبي الدنيا في كتابه الصمت وآداب اللسان.

فاحذر أن تذهب بلسانك إلى ما نهى الله عليه فتقع فيما يغار الله عليه، كما رواه أبو هريرة عن نبينا: «إنَّ الله -تعالى- يغار، وغيرة الله أن يأتي المرء ما حرَّم الله عليه».

أخرجه البخاري في صحيحه (٥٢٢٣).

واعلم أنه ما جرى على الألسنة في زماننا هذا من انتشار الشتائم لمُخزٍ لِمَا لا يتصوره الشاب من جهله بعاقبته، فإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه هدمًا! وذلك لأنه ربما يتكلم بالكلمة الواحدة التي لا يُلقي لها بالًا ولا يظن أنها بلغت من الضرر ما بلغت، فمن سخط الله عليه ينزل بها أبعد

ما بين المشرق والمغرب.. ثُمَّ إنَّ العجب كل العجب فيمن يُشار له بحُسن التربية والأخلاق ومع ذلك لسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يُبالي بما يقول، فإن هذه الدنيا فانية، وسنقف أمام الله في الباقية، فكيف حال قلبك إن ذهب إلى الهاوية؟!

ثم أكثر ما هو مُؤلم هو ضياع أغلبية الشباب في مهالك الدنيا إلا ما رحم ربي، فلست تراهم مع العابدين، وتراهم جامدين في الشتائم والألفاظ كحال الشياطين، فأفق من غفلتك فإن لك موعدًا لن تُخلَفَه، وانظر إلى لسانك وحالك ومقالك، فإن الأخلاق كلمة تقال، وسلوك يُفعل، فإذا انفصلت الكلمة عن السلوك ضاعت الأخلاق!

فتُب إلى الله سبحانه واطلب منه العفو والعافية على ما مضى، وجاهد فيما بقى، فالحق أحق أن يُتبع، وكن مع الحق وإن كنت وحدك، فليست العبرة بكثرة السالكين، وإنما العبرة بمن كان على الصراط المستقيم لله رب العالمين، فطوبى للقلّة، الذين لم يُلطِّخوا ألسنتهم بما حرّم الله.

ولْنَدعُ صاحب رسول الله «حُذيفة بن اليمَان» يُكمل لنا بقيّة الحديث بكل شجاعة ونُبل: «يا رسول الله، إن لي لسانًا ذَرِبًا على أهلي، وأخشى أن يُدخِلني النار».. فقال له المصطفى العدنان: «فأين أنت من الاستغفار؟؟ إني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة».

أخرجه ابن ماجه في سننه باب الاستغفار (٣٨٤٠)، وابن حبان في صحيحه باب الأدعية (٩٢٨)

فأهم ما ينبغي على المسلم المداومة عليه في نهاره وليله هو كثرة الاستغفار حتى يسمو بنفسه عن العادات الممقوتة التي عليها أكثر الشباب في هذا الزمان، وما يعينك على ذلك أن تجعل حديث رسول الله بن جنبيك لا يلتَفت عنك ولا تلتفت عنه، واحفظه جيدًا، واعمل به لعل الله يرزقك محبته، ولْنَدعُ سيدنا «معاذ بن جبل» يروي لنا الحديث: «يا معاذ، اتقِ الله حيثما كنت، وخالق الناس بخلقٍ حسن، واتبع السيئة الحسنة تمحها».

أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (٢١٣٩٢)

فما أجمل هذا الدين القيَّم، والإسلام الحنيف، يضع لنا أساليب سهلة لندرك بها أخطائنا، حتى نحتفظ بماء وجوهنا، وحتى نُعيد بناء أنفسنا من غير أن نتحطم مع الخلية، فليس العيبُ أن تُخطئ إنما العيبُ أن تصر على خطئك!، فكلُّ بني آدم خطَّاء وخيرُ الخطَّائين التوابون، وليس ثمة شيء أطيب من اللسان إذا طاب، ولا شيء أخبث منه إذا خبُث، ومشقة الحياة ليست رخصة للتلفظ بالهراء ومصاحبة الجُهلاء، فهذا لا يَدلُ على هذا، ولا ذاك يقوى لأنه من ذاك!

ولكن مشقة الحياة تهون بحب الله إذ أنعم عليك بلسانٍ شاكر، وقلبٍ ذاكر، فكيف حال لسانك وأنت تستخدمه في ما لا يُرضي الرحمن، ولا تخشى بهما النيرَان، ولم تسمع عن شوق الجِنان،

فجاهد نفسك على إسقاط الأقوال الزائفة وإظهار الحقائق الصادقة، عساك تمتلئ شوقًا إلى محبوبك الأعلى، وعندئذٍ تتهيمن محبته بداخلك لتطرد ظلمات الباطن بعضها فوق بعض، فتَتشَعشع الأنوار، وتشتعل الأشعار، وتنفجر ينابيع الأذكار لله الواحد القهار!

..

يقول عمر بن عبد العزيز: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس، فقائم الليل وصائم النهار إن لم يحفظ لسانه أفلس يوم القيامة.

*****

عالم الأذكار والأنوار

في مثل هدوء البحر وقوَّته، وفي مثل تهلّل ضوء الفجر ووداعته.. يضرب في مناكب الأرض في كلماتٍ يتفجَّر الحقُّ من جوانبها، ويتلألأ النور بين ثناياها، قائلًا لمن حوله:

«ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند بارئكم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم مِنْ أَنْ تلقَوْا عدوَّكُمْ فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟؟»

فتتهلّل الوجوه، وتلتمع النفوس، وتَشْرَئِب الأعناق..

«أيُّ شيء هو.. يا أبا الدَّرْدَاء»؟

ويستأنف أبو الدرداء صاحب رسول الله حديثه بكل ما في الدنيا من بهجة وفرح:

«ذِكْرُ الله.. ولَذِكرُ الله أكبر!»

*****

ذكر الله مِن أعظم دورات العلاج التي تزرع الفردوس في كلماتنا، وتُخلصنا من الرزايا الدنيئة التي تلتئمُ بنفوسنا، وتُمطر الإخلاص في نِيَّاتنا، والطمأنينة على قلوبنا، لِمَا يتعلق به من أسمى ما عرفت الدنيا من معانيها، فيُحيي الله في قلوبنا نوره، وينشر في صدورنا رحمته.

وهو خير مثال بين الحي والميت لأن طبيعة النفس ما بين الخير والشر، فتعود النفس إلى طريقها في الحياة مهتدية بذكر الله، مُطمئنة ساكنة لا تتفرق بها السبل مهما تقطعت بها الأسباب! فالعبد في الدنيا في سفر شاق، والفتن قد كَثُرت في زماننا، ولا سبيل إلى النجاة إلا بطلب الطريق ممن هو بإرشاد السائرين حقيق، فنتجه إليه ذاكرين أن يَهدِينا سواء السبيل الذي لا نُضِل فيه ولا نُضَل، ولا نَذِل فيه ولا نُذَل.

واعَلمْ أن ذكر الله أشرف المقامات التي يتصل بها عبودية العبد مع ربوبية الرب في طلب النجاة، وعودة المياه إلى مجاريها، فذكر الله قرة أعين المحبين الذين تتغشاهم سَكينته وتُظِلهُم رَحمته، وهو لذة أرواح المتعطشين لحب الله الذين يتصلون معه في اليوم مئات المرَّات، بل ألوف المرَّات، ليجنوا من ثمار المحبوبية ما يزيدهم شوقًا في هداية قلوبهم.

واعَلمْ أن العارض عن ذكر الله يضرب لنا صورة للنفس المبتعدة عن موحيات الذكر وموجبات الشكر، فجَعَلَ للشيطان عليه سبيلًا فأنساه ذكر الله سبحانه، وكان في حربٍ أعانه عليها شيطانه، ومن

يكن الشيطان له ملازمًا فبئس الملازم والقرين!، فهل أسعدته الدنيا إذا انشغل بها عن ذكر الله وطاعته؟ أم كانت له كسراب يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا!

فوالله لا يُتصَوّر أبدًا أن المسلم خالي الوعاء من ذكر ربه، حتى أصبح قلبه جافًّا يابسًا، وإنَّ والله لجفاف الأراضين السبع أهون مِن جفاف القلب ويابسه!

واعلم أنَّ المُقبل على ذكر الله على الدوام، يكشف لنا صورة من صور الصبر الجميل من جانب العبد لينال بذكره القيم الدينية والمبادئ الخُلقية.. فالقلوب المُضاءة بذكر الله، المُشتعلة بالتسبيح والتحميد هي قلوب مُستنيرة بنور الله، فلا يكون للشيطان عليها سبيل؛ لأن الشيطان لا يُعَشِشُ ولا يُبَشِشُ في قلبٍ تَشعشع فيه الأذكار لله الواحد القهار.

فهو القريب سبحانه الذي شَرَعَ لنا الذكرَ لنتذوق طعم مناجاته في ليالي الدجى وظلمتها، ولعلّ أصحاب رسول الله أعانونا على ذلك، حينما وجدهم النبي يدعون ربهم بأصوات مرتفعة، فقال -عليه الصلاة والسلام-: «اربَعُوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سمعيًا قريبًا»..

أخرجه البخاري (٤٣٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

ويا لله في قول نبينا إنكم تدعون سميعًا قريبًا! أليس كافيًا بأن يبعث الطمأنينة والإيمان في قلب أي إنسان في لَيَالِيه الظلماء؟

يسمع سبحانه أصواتنا حتى ولو كانت في أعماقنا، فسبحان من وسع سمعه الأصوات.

ولنا في نبيّ الله زكريا -عليه السلام- أُسوة حسنة، فقال تعالى: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ ﴾ [مريم: ٣] حتى جاءته الملائكة وهو قائم يُصلي في المحراب أن الله يُبشره بغلام اسمه يحيى لم يجعل له من قبل سَميّا، فكان دعاءُ النبي خفيّا، وجاءته البشرى جَليّا!

وفي هذا ما يُضيئه لنا الخبر الرباني فيما يرويه لنا أبو هريرة عن رسول الله: «وإن تَقَرَّبَ إليَّ بشبرٍ تَقرَّبتُ إليه ذراعًا، وإن تَقَرَّبَ إليَّ ذراعًا تَقرَّبتُ إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيتُهُ هرولة».

أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

فكلّ خطوة تخطوها تجاه الله تجد الله، وكُلّما كان العبد أشدُّ قربًا من ربه كان الأُنس بجواره أنفع وأرفع، وكان الله معه بحفظه ومعيته.

فالسعادة ليست في الدنيا ذاتها فالمادة تفنى، ونسائم السعادة هي أشياء لا تُباع وتُشتَرَى، فالعبد إذا ذَكَرَ ربه في السَّفر والحَضَر، وفي الصباح والمساء، وعند النوم والراحة، ومع العمل والطاعة، كان في نعيم إلى نعيم بواسطة الله، لأن هذا النعيم لا يتعلق بأسباب الدنيا بقدر ما هو مرتبط بمعية الله، فتلتف به نسائم السعادة متراحبة كتراحب الأفق، غزيرة كضوء الشفق، ممتلئة

كسحائب الغسق، فإنَّ البقعة والدَّار، واللسان والمقال لتشهدُ للذَّاكر عند الله!

لذلك ينبغي على المؤمن الدوام على ذكر ربه كما يتذكر الحبيبُ محبوبَه، والعبدُ سيّدَه، فلا ينشغل بحطام الدنيا عن محبوبه، ولا بجفاف الدنيا عن سيّده، فمن أحب الله أكثر من ذكره، وأما الذي يذكره قليلًا فهو لم ينتقل للمحبوبية بعد الحب، وقد جاء في صحيح البخاري عن خاتم النبيين والمرسلين: «مَثَلُ الذي يذكُرُ ربَّه والذي لا يذكُرُ ربَّه، مَثَلُ الحي والميت».

أخرجه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩).

وهو سبحانه له الصفات العلى كما يليق بذاته، فلا يقبل إلا طيبًا، ولا ينزل منه إلا الطيب، لذلك إذا عَرَفَ العبد ربه، وعَرَفَ صفاته وأفعاله، أحبَّ الإقدام على ربه، وأحبَّ اللهُ الإقدام إليه.

واعْلَم أنَّ أطيب الكلام إلى الله كما قال الرسول: «أحبُّ الكلام إلى الله أربع: سبحان اللهِ والحمدُ لِلهِ ولا إله إلا الله والله أكبر».

أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٣٧).

فإذا ما خطر بقلبك المخلوقات الروحانية والجسمانية، العلوية والسفلية، فاعلم أن الله أكبرُ من مشابهتها ومشاكلتها، فهو سبحانه أكبر من همومنا وأتراحنا، ومن قلوبنا وعقولنا، وهو المتكبر والأكبر، فسواء كبَّرنا أم لم نُكَبِّر فهو كما يليق بذاته الكبير المتعال، وعاد ذلك بالنفع على قلوبنا بالخيرات والبركات من تنزيه الخالق عن النقائص في الصفات والأفعال، وكذلك بقولنا «الحمد لله»

تتضمن إثبات كلّ نعمة وُهبت من الله قبل أن نسأله إياها على أتمِّ الوجوه وأكملها، وبذلك يكون الخالق هو المتفرّد بالألوهية وحده، وأن كل معبود سواه باطل وهذا معنى قولنا «لا إله إلا الله».

وفي هذا المقام يروي لنا الشيخان في صحيحيهما عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرنِي في نفسه ذكرتُهُ في نفسي، وإن ذكرنِي في ملإٍ ذكرتُهُ في ملإٍ خير منهم».

أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

فإن هاجت المشاعر تَحصنّا بالأذكار، فالعبادة ليست غرورًا ولا تَأَليًا، إنما هي التماس لينابيع رحمة الله، وبذلك إن أَدرَكتَ بقلبك ذكر الله وشَهَدَ عقلك وخَضعت جوارحك، أدركَتكَ حينئذٍ أنوار الله بذكر المنَّان، وهانت عليك مصائب الدنيا بوجود الرحمن في قلبك.

واعلم أن الدنيا ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما ولاه، كما أخبر بذلك سيد البشر.. فكل إنسان له زاوية يضطرب فيها قلبه، ويتموَّج بها عقله، ويمرُّ عليه فيها بعضٌ من الأغيار التي تزلزل إيمانه وثقته، لذلك شَرَعَ الحق سبحانه الذكر كعلاج لتثبيت عقيدة المؤمن، ولقد أضاء الله لنا ذلك في قوله تعالى:

﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨ ﴾ [الرعد: ٢٨].

هذا.. وإنَّ مِن أعظم ثمرات الذكر بجانب كونها العبادة التي يُحبها الله أنَّها تُذهب عنك أيَّ ضيق، فإذا جافاكَ الناس فتشبث بالتسبيح، فمتى سبَّحت الله بقلبك كنت سعيدًا به عن ما سواه، لأنَّك تُنزِّهه عن كُلِّ شيء، وسبحانه يُنعِم عليك من كل شيء، وفي هذا ما يُضيئه الله في كتابه الكريم في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨].

وبذلك هيأ لنا الحقُّ مِنهاجًا للسير إليه نربط به دنيانا بديننا، وقد وُرِدَ في أدبيات الشريعة التكبير عند الصعود لأعلى، والتسبيح عند نزولنا من أعلى، فمع كل سلالم بيتك، جامعتك، جامعك قل: الله أكبر كلما صعدت، وسبحان الله كلما نزلت.. وكان نبي الرحمة إذا خرج من بيته قال: «بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم إني أعوذ بك أن أَضِل أو أُضَل، أو أَزِل أو أُزَل، أو أَظِلم أو أُظَلم، أو أَجهَل أو يُجهَل علي».

أخرجه أبو داود (٥٠٩٤) واللفظ له، والترمذي (٣٤٢٧).

واعلم يا صاحبي أن الاستغفار هو الباب الأجمل لفتح أبواب السماء، والاستغفار هو طلب الغفران من الله باللسان والقلب، وهو من الأذكار التي يعظم ثوابها لما يترتب عليه من محو الذنوب وغفرانها، قال الله تعالى:

﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠ ﴾ [النساء: ١١٠]

فمَن أرادَ حياةَ قلبه، ونورَ بصيرته فليزم الاستغفار؛ لعله يكون بابك عند الله، وصدقتُك الخفية التي يُحبها الله، وكما قال نبينا الكريم فيما أخرجه لنا الطبراني والبيهقي:

«من أحبَّ أن تَسُرَّه صحيفتُه، فليُكثر فيها من الاستغفار»..

أخرجه الطبراني (٨٣٩)، والبيهقي (٦٤٨).

فإنَّ ملء الأرض آثامًا وخطايا، ليذهب هباءً أمام ذرة واحدة من رحمة الله بعبده المُستغفر!

وكذلك الحال مع قولنا: «لا حول ولا قوه إلا بالله»، فهي كنز من كنوز الله، والكنز يكون مخفيًّا ولا يكون ظاهرًا، فإخفاؤه فيه من التشويق للعبد على الإكثار منه، ومعلوم أن إظهار الكنز ينافي التشويق، كما أنها لها سر عجيب في مدد القوة والتمكين، لأنه لا حيلة للعبد ولا قوة، ولا سند ولا عون إلا بالله، وهذا معنى قولنا لا حول ولا قوة إلا بالله.

هذا وقد أوصانا نبينا بملازمة الدعاء بما كان يدعو به سيدنا يونس -عليه السلام-، ولندعُ سعد بن أبي وقاص يروي لنا الحديث عن رسول الله، فيقول: «دعوةُ ذي النُّون إذ دعا وهو في بطن الحوت:

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجلٌ مسلمٌ في شيء قط إلا استجاب الله له»..

أخرجه الترمذي (٣٥٠٥).

ومن الأذكار المُوصَى بالدوام عليها «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» فهي ثقيلةٌ في الميزان، حبيبةٌ إلى الرحمن، خفيفةٌ على اللسان، والتسبيح فيها هو التنزيه، فأنت ترى والله يرى، ولكن هل رؤية الله كرؤيتك؟، وأنت تسمع والله يسمع، ولكن نزهُهُ سبحانه عن مشابهتك ومُشَاكَلَتِك، لأن الله خلقك من عَدَم، وأمدكَ من عُدم، وبذلك يكون حمده شكرًا، وتسبيحه تنزيهًا، والجمع بينهما تعظيمًا!

فهؤلاء الأذكار التي يُوصى بالإكثار منها في كتاب الله وسُنة رسوله لِمَا تحمله من خير لصاحبها، فالزمها وفقك الله.

ولنترك حديثنا لابن كثير فيقول: «البسوا معطف الأذكار ليقيكم شُرور الإنس والجان، ودثّروا أرواحكم بالاستغفار لتمحى لكم ذُنوب اللّيل والنّهار، وإن أصابكم ما تكرهونه فسَترضون وتتيقنون بأنّه خيرٌ قدّره لكم ربّكم لأنكم قد تحصّنتم بالله»..

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الذكر للقلب كالماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا أخرج مِن الماء؟!»

فإنما الدنيا كشجرة تستظل تحتها قليلًا في سيرك إلى الآخرة، فاحرص أن تأخذ من ثمارها ما يعينك على ذكر الله، وابتعد عن زخرفها الفاني وغرورها الضاري، وصاحب أهل التقوى الذين

تتغشاهُم سكينة الرحمن، وتظِلهُم معية المنان، فإنَّ الطِّباعَ مجبولةٌ على التشبه والاقتداء، ومن صاحب أهل الخير لا بدّ أن يتَلَقَّاهُ الناس كبشائر الخير، واحرص ألا تصحب معك في رحلتك من لا يُنهضك حاله، ولا يدلّك على الله مقاله، حتى لا تقع في المثل المشهور: «جبت الأقرع يونسني كشف راسه وخوفني».

وعليك بكثرة مُتابعة الصالحين على "السوشيال"، فنفسك إن لم تشغلها بمُتابعة المتقين شغلتك بسفسافها! والمعرفة التي لا تنمِّيها كلَّ يومٍ تتضاءلُ يومًا بعد يومٍ؛ فالزم العلم والعلماء، وأكثر من متابعة الصالحين الأتقياء، واجعل هذا شعار حياتك «مَن جالس العلماء عَلِم، ومن أُعجب بنفسه هَلَك».

واحرص يا رفيقي ألا يفوتك الذكر ما حييت حتى وإن غاب قلبك عن الخشوع، فعسى أن يرفعك الله من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة.

واعلم أنّ أعظم ما يُعينك على التلذذ بذكر الله أن تفهم معانيه ومراميه، فمن تدبر ما يقول، وفهم المراد من قوله، كان تقلبه في رياض هذه المعرفة أنفع من الدنيا وما فيها.. وفي هذا المقام أذكركم بالرجل الذي جاء نبينا محمدًا، ثمَّ قال له: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبث به، فقال -عليه السلام-: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله تعالى».

أخرجه الترمذي (٣٣٧٥).

وعلى ذلك فليدرك العبد إذا ذكر ربه أنه مُقبل على قيومية الله وكبريائه وليستشعر أن الله أكبر من همومه وأتراحه، وبذلك يجمع بذُل عبوديته عزة ربوبية ربه، فينال الاطمئنان بذكره، والسكينة بعبوديته، فالكون بأكمله يلهج بذكر الله، المهم أن تُحسِن أنتَ استقبالها!

ولعل هذا كله هو السر وراء قول سيد المرسلين: «ألا أُنبّئُكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخيرٌ لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخيرٌ لكم مِن أَن تلقَوا عدوَّكُم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟! قالوا: بلى يا رسول الله.. قال: ذكر الله عز وجل».

أخرجه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠).

فهنيئًا لمن استعان بالذكر في رحلته إلى الله.. فصاحبته نسائم السعادة، وأنسام العافية إلى غايته.

كالمطرِ ذكرُك يَا رحمنُ أشرقَ نَسِيمَنَا..

يروي القلوبَ صلاةً وتهليلا

كالغيثِ جِئنَا يا منَّانُ سبيلا..

يشفي القلوبَ ولو قُتل لنَا قَتِيلا

*****

بَسْمَة!

مع أمطار السماء، كانت أمطاره هادئة لينَّة، وكانت ابتسامته تُحيي في القلوب ألف ابتهال، وتنتشر بين الأرواح بالكمال، وتبتعد بينهم وبين الأغلال!

تعالوا ننظر بإمعان لابتسامة نبينا الكريم مع من شاركوه أركان الحياة، لنرى مزيدًا من اللطائف لقلوبنا قبل البعثة وبعدها، لنقتبس منها مصابيح نورانيّة يتلقاها من شاركونا أركان الحياة.

كان جميعُ من في السوق في مكة قبل البعثة يرمقون الحياة بعيون الدينار والدرهم، ويعتلي أزقّة الأسواق أفواهُ رجالٍ ينثرون الحَيلَ في كلِّ مكان ليبيعون، وهنالك تحت ظل الشجرة ترى نبينا واقفًا يَعرض سلعتَه، متواضعًا تُغمِرَهُ ابتسامته، بسيطًا تُلاطفه رحمته، فيشتري منه مَن يشتري ابتسامته لا سلعتَه، ورحمته لا بيعتَه، فكلُّ شيء من حول نبينا يبعثُ في نفسه شعورًا بالدفء والسعادة، وينشر في نفوس من حوله بالصدق والأمانة!

فأي دفء كان يلقاه أصحاب النبي بعد البعثة وهو يلقاهم في الذهاب والعودة مبتسمًا، فتُمطر في أرواحهم الحياة، وتظهر على وجوههم البهجة، فالحياة مليئة بقهقهات الأنفس لولا ملامح الابتسامة، ومعالم الحياة ضيقة لولا مرامح السعادة.. فكل الأشياء من حول نبينا أمطرت عليه شعورًا بقربِ اللهِ ومنّتِه، كأنها مجموعة من أمطار الأشواق لامست أرواح الصحابة التي أرهقتها

أثقالَ التراب، فانبجست فيهم رغبة عارمة في ألَّا تُفارق هذه الإشعاعات عينيهم الجميلة يا أصدقاء!

والمتأمل لتلك المعاني يجد الكثير من اللطائف النبوية البيانية، فالنبي مَنح ابتسامته الهادئة لمن حوله بلا كللٍ أو مَلل، فكان يبتسم كثيرًا لأنه يُشارك كلَّ ما لديه لِمن حوله، فابتهجت أرواح الصحابة لأنهم رأوا أنهم بمقدورهم التأثير لمجرد ابتسامة عابرة بعد أن كانت لغة حُرفت رموزها!

يحدثنا عبد الله بن الحارث، قائلًا: «ما رأيتُ أحدًا أكثر تبسّمًا من رسول الله».

أخرجه الترمذي (٣٦٤١).

ويقول جرير بن عبد الله: «ما رآني رسول الله إلا تبسم في وجهي».

أخرجه الترمذي (٣٦٤١).

فلله درُّكَ يا جرير أَيُمكنك الآن أن تتوقف عن المسير، لتُخبرنا ما موقع تلك الابتسامة من الإعراب؟

فلمجرد ابتسامة من نُحب تجلو مِن حولنا الأتراح، ويعود القلب مُشعًّا نيّرًا جديدًا، فشارك ابتسامتك الطيبة لمن خالطوك ملامح الحياة، فهي عطش الروح لصوت النجاة، فالحواس مُلهَمة لاستقبال نسائم السعادة بدلًا من آهات السكارى الشاردين.. في

الوقت الذي نبحث فيه عن الابتسامة، عِشنا أشياءَ كثيرةً سعيدةً مع المحبين!

لذاك احرص دائما على التبسم مُقتديًا بنبيك مُحمد، فلو كنت في مجلس ودخل شخص وسلَّمَ عليك فابتسم له، ولو دخلت بقالة أو محطة وقود فابتسم لمَن يتحدث إليك، ولو سألك عابر سبيل عن الطريق فابتسم له ابتسامة خفيفة؛ فهو تاركك بعد حين والابتسامة باقية لك إلى حين! وإن رأيت عجوزًا يحتاج إلى من يعبر به الطريق فأسرع إليه مُبتسمًا ممدًا يد العون، فهذه أشياء بسيطة لا تكلفنا شيئًا، ولكنها كفيلة أن تجعل اليوم أحلى، فمن الناس من تراه خفيفًا في مروره، ولكن ابتسامته الواحدة تمحو آثار ألفِ عاصفة هوجاء حتى وإن عزَّت اللُقيا وقلَّت السُقيا!

فوجودك في هذه الحياة مؤقت، وحياتك على وشك الاقتراب إلى نهايتها، فإن لم تبتسم لكَ الحياة، فأسرع إليها وزَغْزغهَا.

ولنا في رسول الله قدوة حسنة، فلقد أشرقت ابتسامته في قلوب أصحابه بيوتًا من الأمل، فأصلحت ما أفسدته جاهلية العرب، وابتهجت أرواحهم بأمطار الأشواق بأن حضرة جلال الله جميل، أجمل بكثير مما كانوا يظنون، وأعلى بكثير مما يمجده الممجدون، فشعروا بجمال الأشياء من حولهم، ليس لأنهم رأوها كذلك، بل لأن الله خلقها جميلة بالفعل.

لَا غَيَّبَ اللَّهُ بَسمتنا فِي الغَسَقِ.. يا بَهْجَةً كضوءِ الشَّمْسِ فِي الشَّفَقِ
هَل يَأْنَس الْعَبْد مَحْرُومًا مِنْ العبقِ.. يَا وهجةً بِنُورِ اللَّهِ فِي الأفقِ

مع النبي..

كان النور يشع إلينا في فناء بيتنا على استحياء، وكانت عوالم قلب والدتي مليئة بضوء الشمس، وما زال النور من حولنا يخفت تدريجيًّا حتى وصل إلى الغروب، وشمسُها ما زالت لا تغيب، وكانت دقات قلوبنا تقتبس من النور الخافت الشيء اليسير، ودقات قلبها تقتبس أنوار الكون الكثير، حينها تأملت للوهلة الأولى منظر الشمس وهي تُحلّق فوق الرؤوس كُلٌّ بقدر عمله، وشمسها في الآخرة -إن شاء الله- تغيب!

ففي الثامنة مساءً ونحن نشاهد سيرة رسولنا الحبيب، ومع مشهد وفاته الذي طالما مس القلوبَ قبل العيون، ها هي والدتي -حفظها الله- تقول ودموع عينيها تسابقها على وجلٍ: (حُرمنا يا رسول الله من رؤيتك في الدنيا، فهل لنا في الآخرة نصيب؟)

كثيرًا ما كنت أتأمل كلمات والدتي، لقد حُرِمَنا مجالسة رسول الله في الدنيا.. فكيف السبيل وإن حُرِمنا مصاحبته في الآخرة؟

كيف المقام في جنة نُحرَمُ فيها رؤية الرسول؟

رأيتُ في ليلتها تعليقًا مكتوب فيه: (ماذا لو كان الرسول بيننا، يدخل بيتنا ويسأل عن أحوالنا؟)

للمرة الأولى تكتب يداي ما لا رأت من قبل، لا والله يا رفيقي ما حُرِمَنا من صحبة الرسول، حتى وإن فارقناهُ جَسَدًا فلا والله ما فارقنا روحَهُ، فالحبُّ قيمة يسكن الروح، والأصل فيه أن يكون محسوسًا لا مقهورًا، ومفهومًا لا مجهولًا، فأمَّا القلب فالنبي ساكنهُ، والعقل يحيا بسنتِه، وإن حُرِمنا رُؤيتَه، فلا والله ما حُرِمنا محبتَه!

وبذلك تكون الروحُ طاهرة نقية السريرة، ممدوحة السيرة لا يعتريها الذبول مهما تبدلت بها الأحوال، ومهما جفت بها الأراضين، ففي البيت والسَّفر، وفي جميع مواطن الحَضَر، نصلي على سيدِ الأخيار صلاة واحدة فيُصلي بها الله علينا عشرًا، فما أعظم القلوب إذا صلى عليها علَّام الغيوب!

فهل هناك من بشائر العافية التي يملأ عبيرها أفئدة الأبرار هُدى ونورًا أعظم من يُصلي عليك الله؟؟

فالصلاة من الله رحمة فيها ما لا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالنور يتلألأ بين جوانب الرحمة، ويتفجَّر مع جوارح الخشية، لأنه متى اتصف المرء بكثرة الصلاة على رسوله كان مثالًا للخُلق الفاضل والسلوك النبيل، إذ لا يمكن لقلبٍ اجتمعت فيه محبة النبي، أن يلتئم به عقل العقول عن السعادة والاطمئنان!

فكيف تكون صلاتنا على نبينا العدنان؟ وما معنى الصلاة وما معنى السلام؟ وكيف لكثرة صلاتنا أن تحيي فينا صحبة رسولنا في الدارين؟

وكعادة القرآن يرسم لقلبي صورة من صور الإتقان، وفي هذا ما يُضيئه الرحمن: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٦]..

وكانت أول إجابة لأسئلتي تسري إليَّ بشوق واشتياق، كانت لتشريف خاتم المرسلين، حينما اجتمع الثناء عليه من أهل السماء والأراضين، فالصلاة من الله عطاءَ البركة والرحمة، وهي الثناء عليه، والعناية به، والصلاة من الملائكة الاستغفار، ومن المؤمنين الدعاء، وكل تشريف للنبي هو تشريف للمؤمنين في حد ذاته، فكل خيّر يناله رسول الله هو خير لأمته، فكيف لا أحظى بمحبته؟؟

وبعد هذه المكانة التي سكنها خاتم النبيين، ارتبطت بها الحفاوة والتكريم، والإجلال والتعظيم، وهذا معنى السلام بعد التشريف!

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله بالأمر بالصلاة عليه، منها ما رواه لنا البخاري عند تفسير الآية السابقة، قال: جاء «كعب بن عجرة» وقال: تلك صلاة الله وتلك صلاة الملائكة، فما الصلاة عليك يا رسول الله؟ فقال: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد».

رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

واعلم أنَّك غير مقيد بصيغة معينة، فلو صليت على النبي بأي صيغة، حصل المراد من الصلاة عليه إن شاء الله.

ولما أتى سيدنا «أُبيّ بن كعب» رسول الله، وقال: «يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال ما شئت، قال: الربع؟ قال: ما شئت فإن زدت فهو خير لك، قال: النصف؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قال: فالثلثين؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: إذن تكفى همك، ويغفر ذنبك».

أخرجه الألباني (٨٨٩).

وفي هذا المشهد تعالوا نقتبس معًا العظات والعِبر، أولهما أن نُكثر من الصلاة على نبينا، وثانيهما لا نترك الدعاء لأنفسنا، فهناك أدعية مطلوبة في الصلاة وبعدها، وفي الحياة اليومية لا ينبغي تركها، وثالثهما أن نبدأ بالصلاة على رسولنا الكريم، فإنها من أعظم الوسائل بين يدي الدعاء كما جاء في سنن الترمذي عن رسول الله: «إذا صلَّى أحدُكُم فليبدأ بتحميد الله، والثناء عليه، ثُمَّ لُيصَلِّ على النبي، ثم ليدعُ بعدُ بما شاء»..

أخرجه أبو داود (١٤٨١)، والترمذي (٣٤٧٧).

وقد ثَبُت في أدبيات هذه الشريعة أن الصلاة على النبي من أنفع ما يُستعان به عند مواضع الهم والشدائد وطلب المغفرة.

هذا. ولكثرة الصلاة على النبي ثمرات طيبة، منها أنها تمحو الذنوب، وتوجب لصاحبه الشفاعة، وفيها تزكية للنفس، وتطهير

للقلب، ولنترك الحديث النبوي لابن مسعود يرويه لنا، فيقول: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة».

أخرجه ابن حبان (٤٥٥).

ولندع ابن الجوزي يُرَقق قلوبنا، فيقول: «واعلموا رحمكم الله أن في الصلاة على سيدنا محمد عشر كرامات: إحداهن صلاة الملك الجبار، والثانية شفاعة النبي المختار، والثالثة الاقتداء بالملائكة الأبرار، والرابعة مخالفة المنافقين والكفار، والخامسة محو الخطايا والأوزار، والسادسة قضاء الحوائج والأوطار، والسابعة تنوير الظواهر والأسرار، والثامنة النجاة من عذاب دار البوار، والتاسعة دخول دار الراحة والقرار، والعاشرة سلام الملك الغفار».

فاعلم يا رفيقي أنَّ مِن أعظم الخزلان أن تعمى الأبصار بالصلاة على النبي المختار، فيُحرَم بذلك صلاة الله عليه، واستغفار الملائكة له، وشفاعة نبيه محمد، وذلك لما عَشَّش بقلبه من الدنيا، وبشَّشَ بالركون إليها حتى أصبح القلب جافًّا يابسًا، وليس هنالك خزلان أعظم من أن يجد صحيفته خالية من الصلاة على رسوله ومِن ثمّ فقدان محبته!!

لأجل ذلك على العبد المؤمن أن يلزم نفسه بكثرة الصلاة والسلام على رسوله كما يلزمها بالدواء التي هي عافيته وشفاؤه، فذاكَ الذكر خفيف اللسان، ثقيل الأجر فلتجعل لك وردًا مِنه

طوال اليوم، لعلَّ الله يجعلك من أهل ملّتِه، ويستعملك بسنّته، ويرزقك شفاعته.

والعبد المؤمن بكثرة صلاته على نبيه عند ربه مرضيُّ السِّيرَة، ممدوحُ السَريرَة، مُتَمَتِعٌ في دنياه بنعيم الله بأسباب الله، وعند الله في الآخرة يَتمتعُ بنعم الله بجوار الله.

.....

صَلَاةُ اللَّهِ عَلَى نبيّه ثناء ومَحمَدَة.

وَصَلَاةُ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ نَجَاةٌ مِن النيران

فَصَلَّى عَلَيْك اللَّهُ يَا خيرَ الأنام..

صَلَاة وَتَسْلِيمًا تُنجِينَا مِن النيرانِ

*****

في رحاب الصلاة

بينما كانت مكّة بأكملها ساكنة هادئة تغطُّ في نومها وقد مالت شمسها للمغيب، رفعت إحدى سُفن الإشراق مراسيها سالكةً طريقًا من النور وسط هذا الظلام الحالك إلى نور الأنوار سبحانه.

وعند مُصَلَّاه الشريف، كان يستقبل السماء ضارعًا، مبتهلًا في شوقٍ عظيمٍ؛ فهو مع الله على موعد!

وها هي زوجته ورفيقة عمره -رضي الله عنها- تدعوه أن يرفق بنفسه ولو قليلًا.. فيجيبها ودموع عينيه تُسابقه: «لقد انقضى عهدُ النوم يا خديجة»!!

*****

من بين العبادات بأكملها، للصلاة طعمٌ آخر، هذه العبادة التي صعدَ سيدُ ولد بني آدم إلى أعلى لاستقبالها، لتكون منهاجًا يجمع العبد مع ربه خمس مرات في اليوم والليلة، ليطمئن قلبه على الدوام بلقاء ربه، وتفتح له طريقًا تُحَلِّقُ فيه رُوحُهُ الحُرَّة مع ينابيع السعادة، فيرى إشارات السماء بحواسه بعد أن أدرك صلواته الخمس بقلبه!

فلله الحمد أن شرع لنا خمسَة لقاءات تُجَدِّدُ في أرواحنا مصابيح الإيمان فتنهال علينا أمطار الأشواق بأن الله جميل، وتفيض

نفوسنا بكل ما في الدنيا من بهجة بأنَّ الله قريب؛ فنحن مع الله في كلِّ يومٍ في لقاء وموعد!

وقد جاء في القرآن الكريم الأمر بالمحافظة على الصلاة وأدائها في أوقاتها في أكثر من موضع إكرامًا لمنزلتها، فإقام الصلاة كما هو معروف في الحديث أنها من أركان الإسلام الخمسة التي هي أساس الدين، فما معنى إقام الصلاة يا أصدقاء؟

الإقام لغةً هي المداومة، تقول: أقمت على الشيء أي: داومتُ عليه، وتقول: أقمت الشيء أي: جعلته مستقيمًا معتدلًا، وبذلك تكون إقامة الصلاة هي عماد الدين وركنه الركين، لأنها بمثابة عهد يُجدده العبد مع خالقه في اليوم خمس مرات، فمن أقامها أقام أركان الدين، ومن ضيّعها فكأنما خلَّ بدعائم بيته حتى خرَّ عليه السقف من فوقه!

وذلك لأن الصلاة عبادة بدنية تُؤدى بأي كيفية مستطاعة بخلاف بقية الأركان، فالزكاة لا تتكرر إلا كل عام، وكذلك الصيام والحج، فكان أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صَلُحت صَلُحَ بقية الأعمال، وإن فسدت فَسَدَ بقية الأعمال!

لماذا؟ لأنَّك في الصلاة تقوم بكل أركان الإسلام المطلوبة، ولا عذر لك في تركها، فقد تكون معذورًا فلا تصوم، وفقيرًا فتسقط عنك فريضتا الحج والزكاة، ومهما كان حالك ومقالك ليس هنالك حاجز مادي أو جسماني يمنعك من الوقوف بين يدي مولاك،

ولعلَّ هذا هو السر جراء قول رسول الله ﷺ كما جاء في صحيح الترمذي:

«العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر».

أخرجه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣).

فإما أن يكون الإنسان بتركه للصلاة كافرًا إن جحدها، وإما أن يكون مرتكبًا كبيرة من الكبائر إن تركها كسلًا منه في أدائها، وهذا هو الفارق بين معصية آدم وبين معصية إبليس، فآدم قد استجاب لأوامر الله ولكنَّه وقع في المعصية، أمَّا إبليس فقد جحد بأمر ربه من الأساس، والله سبحانه يُريد حبًّا لا انقيادًا، وخشوعًا لا خضوعًا!

ومن عظمة الصلاة أنها تُعطينا الشحنة الإيمانية التي تقينا من الانحرافات، وتشدّنا إلى لقاء الله، فتدفع العبد دفعًا إلى طاعته، وتنأى به عن معاصيه، فالمقبل دائمًا بروح محبٍّ على الصلاة يرى الحق حقًّا فيتبعه، ويرى الباطل واضحًا كضوء الشمس فيجتنبه، لأنه في كل يوم يعرض الصنعة على صانعها، فهل يكون فيها من خلل بعد ذلك؟!

فكما تُحبُّ أن تحفظ نفسك من الأخطار، وجسدك من الأضرار، يجب عليك حفظ دينك من الأغيار، فهو نبراس حياتك اقتداءً بالملائكة الأبرار، ومصدر عزيمتك بتنوير الظواهر والأسرار، وسبيل سعادتك بمحو الخطايا والأوزار، فالصلاة من الدين بمنزلة الرأس من الجسد فتنجيك من دار الهلاك والبوار!

فبصلاتنا على الدوام نُحيط علمًا بالصفات الصمدية، فيراها الفيلسوف كما يراها راعي الشاة، لأنها تأتي للقلوب لا للقوالب! ولذلك تجد الإنسان إذا أحسن وضوءه وأتمّ صلاته خشوعًا، فلم يلْتفت يُمناه ولا يُسراه، حصل له عندئذٍ من نعيم الله بحضور الله، ففضلًا عن كونها عبادة يُثاب عليها عظيم الجزاء إلَّا أنَّها تُسِرّ النفس، وتزيل الهم إذا استحضر العبد عظمة الخالق.

واعلم أن الخشوع على قسمين: ظاهري وباطني

أمّا الظاهري فهو سكون الجوارح عن العبث وجعل البصر موضع السجود، وأمّا الباطني هو خوف القلب وحفظه عن الاشتغال بغير ما سوى الله!

وبذلك يحقق العبد أسمى معاني العبودية والافتقار بين يدي مولاه، طالبًا منه العفو والعافية عن الذنوب والآثام، كما ورد في الحديث الذي رواه أبو هريرة: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفاراتٌ لما بينهنَّ ما لم يَغشَ الكبائر»

أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٧٣٣).

وفي صحيح مسلم يقول السراج المنير: «ما من امرئٍ مسلمٍ تحضُرُه صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءَها، وخشوعَها، وركوعَها، إلا كانت كفارةً لما قبلها من الذنوب، ما لم تُؤتَ كبيرة، وذلك الدهر كله».

أخرجه مسلم (٢٢٨).

ولعلَّ الحكمة من هذا أن يكون العبد موصولًا على الدوام مع الرحمن، فلا تتخطفه الشياطين، ولا همزات المخادعين، ولا أهواء المنافقين، حتى وإن أخطأ الفينة بعد الفينة، فالصلوات الخمس تمحو الأخطاء كما يمحو الماء ما فعله التراب!

وفي سنن أبي داوود قال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهن لم يُضَيع منهن شيئًا استخفافًا بحقهن كان له عند الله عهدٌ أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنة»..

أخرجه أبو داود في سننه (١٤٢٠)، والنسائي (٤٦١).

لأنه ما دام المصير إلى الله فالجزاء على قدر الإخلاص إليه، وهو وعد لمن أحسن، ووعيد لمن أساء.

ولقد أمرنا الله بالاستعانة بالصلاة، فقال جلّ شأنه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ ﴾ [البقرة: ١٥٣] للدلالة على أنها رأس الإسلام فبها تحفظ هيبته، وبها تقام شريعته.

وللصلاة فضل أعظم تمتلئ له القلوب محبة وإجلالًا، ولننظر إلى الحديث النبوي في صحيح البخاري: «إنَّ أمتي يُدعَونَ يوم القيامة غرًّا محجلين من آثار الوضوء»..

أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٦).

والمعنى أن نبينا محمد يعرف أمته بنور يكسو وجوههم وأرجلهم، وهذا النور مما اكتسبوه من كثرة الوضوء لصلاتهم في الدنيا، فكيف حال المرء في يومِ المحشر وليس عليه آثار ما يُميز الأمة الإسلامية؟

وفي هذا ما يضيئه لنا ملك الملوك في القرآن الكريم:

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: ٢٩]..

ففي يوم القيامة أُناسٌ تراهم ناكسين رءوسهم لا يرتدّ إليهم طرفةَ عينٍ ولا همسةَ قلب مِن شدة الخوف والرعب، في الوقت الذي يُنادى على أهل الصلاة من كل صوب وحدب:

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ ﴾ [الزخرف: ٧٠]!

فأهل الصلاة هم أهل التقوى، وإذا ذَكَرنَا التقوى لا يتخلَّف عنها الامتثال بين يدي الله، وإذا وجَدتَ تقوى ولم تجد الامتثال، فاعلم أن هذا الذي تراه ليس تقوى، وإنما هو مظهر من مظاهر الادَّعاء والتكليف! فإذا كان امتثالك للصلاة هو جوهر تقواك، وَجَدَت في هذا الامتثال لذة العاشق ونشوة المُحب، ولا سبيل لتَكلّف العبادة وصعوبة أدائها، فالحب بينك وبين الله قد ساد حتى أصبحت هذه الشعائر جزءًا لا يتجزأ من حياتك، تعيش معها وتأنس بجوارها.

فكلما سمعت المنادي يقول: (حي على الصلاة حي على الفلاح)، فأسرع أيها العبد ملبيًا وعاشقًا، وَقِفْ في محرابك بذل العبودية ونادِ على ربك بعزة الربوبية، فيُلهمك محبته تمشي بها بين الناس فترى ما لا يراه الناس، ويمنحك رحمةً تنعكس على أفعالك يستشعرها كل من كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد.

ومما يعين العبد على ذلك أن يتوكل على الله في كل صلاة آخذًا بالأسباب، كوجود مُؤَذَّن على هاتفه يُنبهه بمواقيت الصلاة، وأن يترك ما بين يديه عند سماع الأذان، وأن يُصاحب صُحبة صالحة تُعينه على ذلك، وأن يحضر دروس العلم الشرعي التي تجعل الإيمان حرَكة حيَّةً في بناء روحه، لا مجرد ظلال صالحة لهذا البناء لا غير، وإنما هو البناء بعينه، فالأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل، بل يلازمه ويدل عليه، وهو ركن مِن أركانه، بخلاف التواكل، فإنه ادّعاء للتوكل من غير دليل.

فالصلاة رحمة منزلة من السماء، ونعمة محمولة على جناح الرحمة، فهي شمس طالعة في وجه صبح مشرق، فمن نِعَم الله أن أنعم علينا بصلوات خمس في يومنا كفيلةً بأن تبعث الطمأنينة في قلب أي إنسان له مُسْكَةُ من العقل أو أثارة من إدراك، فغاية الصلاة أن يقبل العبد على الله، وذلك بأن يتزين بتلبية النداء والوضوء والأذكار للعرض على محبوبه تذكيرًا له بالعرض الأكبر على الله.

وفي هذا ما يقوله الإمام ابن القيم: «للعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه، فمن قام بحق الموقف الأول هُوّن عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شُدّد عليه ذلك الموقف».

فاعلم أنك موقوف بين يدي الله سبحانه، وتَذَكر أنك مسئول، فإذا أدركت ذلك، فهل أعددّت للسؤال جوابًا؟!

*****

رحلة إلى السماء السابعة!

حتى إذا مالت شمس العبد للإشراق، ورفعت سفن النجاة مراسيها للإبحار إلى العالم العلوي مُتجددة في اليوم خمس مرات تهيُّؤًا للعرض عليه.

فإذا أذن المؤذن ونادى للصلاة، فأسرع أيها المُحب إلى تلبية نداء ربك، وأقبل بمجامع قلبك، ولا تُقبل عليه لطلب الثواب أو الخوف من العقاب، بل اتجه إليه إقبال المحبين؛ الذين جعلوا لذة أرواحهم في المناجاة، وميزان سعادتهم بين يدي الله، وقرة أعينهم في الصلاة.

فقرة العين أن يُقبل العبد على الله، وأن يقبل الله على العبد، وفي الإقبال سكينة ورحمة، وفي الإقبال يحظى بثمرات الأمن والأمان، والصحة والرخاء، متجهًا إلى عتبة الحي القيوم الذي لا تأخذه سِنة ولا نوم لينال شرف الإقدام على من بيده شفاء الأرواح وعافيتها، فلا ييبس ما أُنبت في قلبه من عُشب الخشوع وثماره.

فإذا اتجه العبد بقلبه على العبادة لغرض أعلى من الثواب أو العقاب حصلت له السلامة من الرياء والتسميع، فيعرج بروحه عن الخلق إلى الخالق، وعن الحياة إلى خالق الحياة، حتى يترقَّى العبد ويتعالى، فكلما أدرك خيرًا تطلَّع إلى أَخيَرَ منه، وكأن الثواب ظرف يسير فيه لا إليه، وبذلك يدرك بنيته عزة الربوبية وذلة العبودية، فتتدارك عليه غيثُ المعية السماوية، ويُقبل عليها

لسان العبد ذاكرًا شاكرًا ربه، وجوارحه في خدمة محبوبه، فيتشرف كل جزء من أجزائه بخدمة الله، وذلك أن غاية العبد ومقصده الأسمى من الطاعات هو حصول هذا الشرف من طاعة الله وعبوديته، لا لأجل رغبة ولا لأجل رَهْبة!

وهكذا الحال مع جميع العبادات حتى وإن غابت علينا حكمة الأمر أو النهي فهنالك ما هو أعظم من الحكمة وهو تلبية نداء الرب.. وينبغي عليك أن تتفطن أنَّ خيرَ الناس في زماننا الذي كَثُرت به الفتن مَن يلتف حول العبادة بِالضَّبَّةِ والمِفتَاح، سالكًا طريقه إلى نور الأنوار كمعراج يُشارف به ينابيع الحق ومراميه، لا لمُجرد تكاليف تُؤدَّى، ومحظورات تُترك!

فالصلاة تنتقل بنا من المعراج الجسماني إلى المعراج الروحاني، فذاك اللقاء الذي يجمع بين العبد وربه في اليوم خمس مرات إشارة إلى توديع عالم الدنيا إلى ينبوع الرحمة، حتى يصبح غريقا في نوره، وينزل عليه بلقائه أنواع البهجة والكرامة.

فإذا اقترب العبد من السلطان العظيم كان من الواجب عليه أن يكون طاهرًا من كل ما سواه، لذلك فُرضت عليه الطهارة لتكون في ظاهرها طهارة للأدناس، وفي باطنها تطهيرًا لبدنه وقلبه، وتنشيطًا لأعضائه وترويحًا لنفسه، لِمَا يتعلق بها من طهارة الظاهر والباطن، إذ أن طهارة الظاهر وسيلة لطهارة الباطن من وساوس الشيطان، وهواجس النفس، فالمحبّ الحقيقي لا تكفيه صلاة

واحدة، ولا لقاءٌ واحد، ولأجل ذلك وضع الله خمسة لقاءات في اليوم والليلة من أجل أن نبقى قريبين منه فهو يحبّ قربنَا.

وطهارة المُسلم لها أربع مراتب كما بيّنها الإمام الغزالي في الإحياء:

«فأوّلها: تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات..

وثانيها: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام..

وثالثها: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة..

ورابعها: تطهير السرّ عما سوى الله جل وعلا»

فإذا فهمت ذلك فأسرع في تلبية نداء ربك، واعلم أنّ الخطوات التي تخطوها من بيتك إلى المسجد لا بد أن تكون أحبَّ الأمتار إليك، فهي خطوات قلبك لا خطوات قدميك، فاجعلها مليئة بالأذكار والأنوار، ولا تلتفت إلى صَخَبِ الدنيا عن الملك الغفَّار، وهذا ما أضاءه لنا النبي المختار: «ما بين بيتي ومنبري، روضة من رياض الجنة».

أخرجه البخاري في صحيحه (١٨٨٨).

فاستقم كما أمرت بين يدي الله، وَكَبّره بمجامع قلبك تكبيرًا يليق بذاته الكريمة، ثم استحضر جميع المخلوقات علوية كانت أو سُفلية، غائبة وحاضرة، منظورة وناظرة، وقل «الله أكبر» بقلب مُبصر بعالم الأرواح والأجسام.. وتريد بقولك: «الله» أنه هو الذي

خلق جميع المخلوقات ووهب لها كمالاتها في صفاتها وأفعالها.. وتريد بقولك: «أكبر» أنه سبحانه مُنزه عن مشابهتها ومُشَاكَلتها، فهو المقصود في الحوائج، المُستغاث به عند الشدائد، وهو الله الذي يَجبر عرجَنا في سيرِنا نحوه، ويمدّنا بمددٍ من عنده، فهو سبحانه وَسِعَ المكانَ ظاهرًا وباطنًا، ووَسِعَ الزمان أولًا وآخرًا، فهو أَجَلّ من أن يُشابه المحسوسات.

وبعد التكبير لا تنسَ دعاء الاستفتاح وقل «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نَقِّنِي من الخطايا كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَس»، ثُمَّ اقرأ الفاتحة بقلب مُبصرٍ لا بقلب لاهٍ عن ما تقرأه، فأنت بين أفضل سور الله، واللحنُ فيها مبطلٌ للصلاة، إذ باسمه قامت السماوات والأراضين، والفضلُ من الرحمن الرحيم، ثم اطلب الطريق المستقيم إلى أن تصل بقلبك إلى قولك آمين.

أخرجه البخاري (٧٤٤) ، ومسلم (٥٩٨).

ثم اقرأ ما تيسر لك من القرآن فهي عطش الروح لمناجاة الله، واركع بمجامع قلبك مستمطرًا لسحائب رحمته، مُقرًّا لنفسك بذلة العبودية وللحق بعزة الربوبية، حتى إذا سكنت روحك فاعتدل للوقوف محاكيًا بقوافي الحمد بين ثنايا الفؤاد، فشيئا ما يتنزل عليك من الرحمن يهيئك للسجود لأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ليكون أسباب نزولك من أعلى هي أسباب صعودك إلى أعلى، فاستجمع فيها ملكات عقلك وتحدث مع العظيم سبحانه عن الجروح التي أفزعتك، وعن الآلام التي أوجعتك، حتى تجني من

ثمار العبودية ما يزيدك قربًا وشوقًا إلى محبوبك! ولا يزال هذا الترقي والتصاعد حاصلًا إلى أن تُحيط علمًا بمعاني الألوهية.

فإذا ذاق العبد حلاوة المناجاة في صلاته، ورأى ألطاف الله تحف به، عَزَّ عليه أن ينقطع عن العالم العلوي، واشتاق إلى المزيد من القرب والضيافة في حضرة جلال الله، فيُنادي عليه المؤذن من جديد «حيَّ على الفلاح حيَّ على الفلاح» فيمتلئ قلبه بِشرًا، وتتهلل روحه خيرًا، ويعلم أنه نداء المحبوبية بعد المحبة ليرزقه الله منافع الدنيا والآخرة، مادية دنيوية، ودينية أُخروية، وكأنّه كلما افتقر بذُلَّ العبودية اغتنى بما هو بصدده من عِزّة الربوبية.

وهكذا المُسلم فَوْر أن يسمع النداء: «الله أكبر»، ينتقل بقلبه من صراعات الحياة إلى المناجاة، فتراه يسجد للأرض وقلبه مُحلَّق في السماء، لأنه يستجمع فيها ريحانه وراحته، وكأنَّ لحظة نزوله إلى الأرض هي لحظة اقترابه إلى عرش السماء!

وفي هذا يقول الإمام المرزباني: «يحتاج المُصلي إلى أربع خصالٍ حتى ترفع صلاته: حضور القلب، وشهود العقل، وخضوع الأركان، وخشوع الجوارح. فمن صلى بلا حضور القلب فهو مُصلٍّ لاهٍ، ومن صلى بلا شهود عقل فهو مصلٍّ ساه، ومن صلى بلا خضوع قلب فهو مصلٍّ جافٍ، ومن صلى بلا خشوع الجوارح فهو مصلٍّ خاطئ، ومن صلى بهذه الأركان فهو مصلٍّ وافٍ».

ويقول سيدنا معاذ بن جبل:

«يا بني، إذا صليت صلاة، فصلِّ صلاة مودع، لا تظن أنك تعود إليها أبدًا، واعلم أن المؤمن يموت بين حسنتين، حسنة قدمها، وحسنة أخرها»..

وهكذا تجد الفارق بين من يستشرق قلبه ألقًا بنداء الصلاة، وبين من يستثقلها، وكأنَّ هنالك قوة جذب ودفع، هذه القوة تجذب كل من عشق التكليف، فيحِنُّ إلى بيت الله، ويتحرَّق قلبه شوقًا إلى موضع سجوده، ولعلَّ هذا هو السر وراء قول رسولنا (ورجلٌ قلبُه مُعلَّق بالمساجد!)

ولعلّ من ثمرات هذه القلوب المُعلّقة بالمساجد، جلوسهم في مصلّاهم بعد انتهاء الصلاة، لأنهم عشقوا التكليف ورائحته وما يلْتَفُّ به وما يدور حوله يشكرون الله أن أعانهم على عشق الطاعة في حين غفلة غيرهم عن الطاعة!

وفي هذا يقول السراج المنير كما جاء في صحيح مسلم:

«من سَبَّحَ الله في دُبُرِ كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، وحمد الله ثلاثًا وثلاثين، وكبر الله ثلاثًا وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر».

أخرجه مسلم في صحيحه (٥٩٧).

لذلك مَن أحبّ الله كثيرًا حافظ على صلاته، وأمّا من أهملها فهو لا يُحبه كمحبة المتعطشين لرؤيته، فمن عمي عن صلاته ولم

يهتدِ بها فهو في حرب أعانه عليها شيطانه، فصمّ آذانه عن سماع الحق لتلبية صلواته، وعقل عقله حتى خاب وخسر رحمة الله.

وقد أفلح من سار على محبة الله بما يُحبه الله فعشق التكليف حتى ترفرفت عليه غيثُ المحبة من الصلاةِ بعد الصلاةِ، واحتفلت الملائكة بقبولها احتفالًا سماويًّا ملائكيًّا، حتى إذا وصلت إلى صحيفته واستقرت.. أحبَّ الله لقاءه..

فكلُّ حبيبٍ يُحِبُّ لقاءَ حَبِيبه!

سألتُك بربِ الْكَوْن والأسبابِ..
علاَم نواكَ يَا مَنْ تركتَ الصلاةَ
فَالصَّلَاة تَروي في الْقَلْب إشراقًا..
فَإِن قَسَا الْقَلْبُ أَشرَقَتُه الصلاةَ

*****

رحلة مع القرآن

ذاتَ يومٍ شَهدت شوارع بَلدتنا رجلًا تَغشاه وَعْثاء السفر، وتَحفُّه ظِلال القمر..

على كتِفه اليمنى أكياس ومكنسة..

وعلى كتفه اليسرى دِلْو ماء وعصا.

كان الجو باردًا وكانت بلدتنا هادئة ساكنة، حتى بَدَأت آيات القرآن تَسري إلينا على استحياء تَهبُّ هبوبًا قويًّا على مسامعنا هامسةً على قلوبنا بصوتٍ كالشمس نارًا ونورًا.

وأخذ يُتابع صاحبنا تلاوة آيات القرآن في سيرها ومسراها حافلًا بالحركة والفرح كأنها رايات ترتفع، وأغاريد تُسبح حتى حَسبَها الناسُ عاصفة تكنس رمال الشوارع الناعمة، لكنهم سرعان ما اطمأنت بها قلوبهم، وأُرْهِفَتْ آذانهم!

كما لو كان هناك مُزمار من مزامير آل داوود يقترب منهم مُتَأَنّقًا ومتألقًا في روضاته اليانعات، آية بآية، وسورة بسورة!

*****

يعيش المؤمن على منهاج الحياة تُنازعه ويُنازعها، تحوم حوله مشاعره في سطوع الشمس، وتنحرف ميوله وَسَط عتمَة اللّيل، فشُوهت مشاعره البكر، واتجهت إلى طرق الضياع والبُعد، ومسارب الضلال والبوار.

لذلك أنزَل الله مِن فوق سابع سماء قرآنًا يهز القلوب، ليكون في الإعجاز آية الآيات، وفي مجال التربية والأخلاق أسمى السِّمات، فلقد جاء القرآن ليُلْغي الإنسانية الفاسدة التي كان عليها العرب والعجم ناشئًا مكانها إنسانية رشيدة قوامُها رفعة النفس وتوحيد الرب.

وكذلك الحال في قلبي وقلبك، أشرق الله قلبنا بأنوار اليقين، ولطفَ لي ولك بما لطفَ به لأوليائه المُتقين، فكم نحتاج أنا وأنت إلى دواء في الوقت الذي ينعدم فيه الدواء، وإلى ضوء نُنيرُ به عتمَة الليل كضوء النهار، يحتاج قلبي وقلبك إلى صديقٍ دائمٍ يُؤنسنا في غرفتنا، ننظر إليه فتطمئن قلوبنا، وتتدفَّأ نفوسنا، نحتاج إلى عَالَمٍ حيٍّ في غُرفتنا يُرتب لنا ضوضاء الذات، يحتاج قلبي وقلبك، وغرفتي وغرفتك إلى كتاب الله!

فلقد جاء القرآن وفي قلوبنا داءات مُتعددة عمَّت في الأرض بالفساد والإفساد، فلا قلوبنا صَلُحت تِجَاهَ ربها، ولا مُجتمعنا يَصلح لذات أمرنا، فكان لا بُدَّ من منهج لشفاء هذه الداءات فلا تَعُود ولا نُعَاد، هذا المنهج نتذوق منه الأدب والبيان، ونَتَشَربُ منه

المواعظ والتبيان، ونَشربُ منه الأحكام والفرقان، ويجعل روحنا متعلقة بالعبادات مهما انتشرت الفتن ومهما زادت المحن.

فالقرآن يُوضِّح لنا الحق من الباطل مُخاطبًا جميع الخَلْق بما فيهم من غرائز ومواجيد؛ فساعةَ نقرأ القرآن فهو يشفينا من الداءات النفسية لأنَّه يكبحها ويُرَقِّيها، ثم يَحملنا تلقائيًّا على تفجير طاقات الشفاء الكامنة في أعماقنا.

فيزرع في صدورنا بذور الآخرة، مُبينًا نوازع الخير والشر في الإنسان وانعكاسها على من حولنا، فنتحسس بأرواحنا رحمة الله، وكمْ أنَّ الله حنَّانٌ ومنَّانٌ وجميل، فيتمثل في أذهاننا الذين آمنوا به وصدَّقوه، واتَّبعوا النور الذي أُنزِلَ معه..

لأنَّ طبيعة النفس البشرية ما بين الخير والشر، والهدى والضلال، وفي الصراع الدائم بينها وبين مشاعرها التي شُوهت، إذ لا سلطان للإنسان على مشاعره، فيتجه إلى ما يُثيرُ عواطفه المنحرفة ليُشبع رغباته الشهوانية، وتتحول إنسانيته إلى صحراء قاحلة لا تُعبّر عن ارتقاءات الروح الطاهرة!

فأنزَل الله قرآنًا يتجه بجملته إلى القلب، بَدءًا بالإدراك ومرورًا بالوجدان ووصولًا للنزوع، لأن القلب هو الوجهة الصحيحة التي يتلذذ بمعرفة الله، فتنتشر في قلبه محبته، ويُثَبِّت عقائده الصحيحة، وينفي الأفكار القديمة، ويعالج شتى النزعات التي مَلَكَتْ عليه شِغَافَ قلبه، وعششت وباضت وأفرخت على عقله.. فهذه الأمور والمِحن التي يظنّها الإنسان لا تزول، ستزول مع

مداومته على تلاوة القرآن، فلقد أَنزله الله سبحانه ليكون حربًا على هذه العواطف، وتلك الميول.

لذلك تجد دائمًا المُلازم لكتاب الله سبَّاقًا إلى الخير، فالله سبحانه قد خلقَ لنا حرية الاختيار في الأمور التكليفيّة، فإمَّا أن يكون القلب باختياره مع همسات الملائكة عابدين لله ربّ العالمين، وإمَّا أن يكون مع همزات الشياطين غافلين عن الله أحسن الخالقين.. وشتَّان بين القَلبين، فقلبٌ يحيا مع ربه ويأنس به، وقلبٌ أشدّ من الحجارة قسوة وصلابة، فاختر بأعمالك أيّ القلبين أنتَ في الدنيا، ثمّ تَفكّر في حالك يوم القيامة، فأين الآن قلبُك؟!

فإن غاية القرآن دعوة المؤمن إلى الله، لأنه تعبير عن واقعنا الإنساني، وتصوير صادق لغرائزنا المختلفة، فيتجه بنا إلى إرسال دعائم الإيمان بالله ومعرفته، وحُسن التوكل عليه، فيرتقي بالعبد إلى كمالٍ في الدين، وسموٍّ في الخلق، وينزع من قلبه آفات الحقد والحسد، ويُخرج خَبَاياه النفيسة، ويزداد أَلقه الفريد، فمع آيات الله التي يتلوها العبد على الدوام يجد كلّ النزعات السيئة التي خَطرَت عليه ذات يومٍ وَجَدَت طريقها للانكماش مع العادات الممقوتة، أما الفضائل الجليلة فلا شيء يشحَذُ تألقها كتأملها لكتاب رب العالمين..

لأن العبد المؤمن كُلّما قرأ القرآن ازداد اطلاعًا على ما يحبه الله وما لا يحبه الله، فتجتمع فيه رزانة العقل، ورجاحة الرأي، وشدة

التمسك بالدين والعقيدة والإحسان.. وذلك لأن القرآن هو روح الحياة وريحانها، وانظر إلى الدقة البلاغية في هذا المشهد:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ ﴾ [الإسراء: ٩].

وبجانب أنه يُعيد إنسانيتك، يُصلحك!، يُصلح ما تعلمه وما لا تعلمه، هذا الذنب الذي لا تستطيع مقاومته يُعينك القرآن على حربك ولا هزيمة لمن معه القرآن، فترجح كفة القرآن حتى وإن كان العالم بحذافيره في الكفة الأخرى! وتلك المشاعر التي آلامتك يمحوها القرآن تدريجيًّا وينزعها منك نزعة لا يُسمَع لها دويّ ولا أثر، وكل ما يريده منك القرآن أن تُنصت إلى إصلاحك، لأنه سبحانه أعطى الكون أسبابًا، فإذا عزَّت الأسباب فالجأ إلى المسبب الأعلى، وتلك درجة فوق درجات الإيمان، ويقين ما بعده يقين.

*****

يا رب ومعجزتي!

وبجانب أنه يُعيد إصلاحك، ينتقل بقلبك إلى ما فوق الأسباب الكونية، بدءًا بحصانة داخلية تقوى بها ذاتك، ومرورًا بقوة معنوية تعلو من شأنك، ووصولًا إلى بلاغة قولية تجعلك ترسم بكلامك ما يعجز عن رسمه الألوان فلا يصدر من فِيكَ كلامًا يُنافي خُلق القرآن، وهذا والله عن تجربة أجريتها بنفسي، وأَشهَدُ آثارها أمام عيني بفضل الله.

وقد جاءت الأحاديث النبوية كثيرة في هذا الباب، منها ما جاء في صحيح الترمذي عن خاتم النبيين:

«خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه»..

أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠٢٧)

وما جاء في مسند أحمد عن رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا فهو يُنفقه آناء الليل وآناء النهار»، والحسدُ إما تمني زوال النعمة وهذا حرام بالإجماع، والحسد المذكور في هذا الحديث هو الغِبطة وهو تمني ما عند الغير دون زواله.

مسند أحمد (٣٠) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

وجاء في الصحيحين:

«مَثَلُ المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجَّة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها طيب حلو»..

أخرجه البخاري (٥٠٢٠)، ومسلم (٧٩٧).

وأخرج الترمذي عن رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «آلم» حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

أخرجه الترمذي (٢٩١٠) واللفظ له، والبيهقي في (شعب الإيمان).

وبين هذا كلما ازدادت قراءة العبد لكتاب الله كان التِذاذه شوقًا بمولاه، فيشتاق العبد إلى تلاوة القرآن يومًا عن يوم، فإن من أعظم المكاسب أن يتخيل العبد وهو يقرأ الفرقان أنَّه عليه أُنزل، فيجد في كل سورة لذة تختلف عن السورة التي سبقتها، ولا يزال يُقبل حتى يُلهمه الله لذة إتقان الآية، ثم لذة معانيها ومراميها، ثم لذة ضبط المُتشابهات، فيسطع النور في وجهه، والفصاحة في حديثه.

فإلهنا ربٌ كريم، قديرٌ لا يُعجزُه شيء في الأرض ولا في السماء، قريبٌ وهو أقرب إلينا مِن حبل الوريد، كريمٌ أنعم علينا بالقرآن، فبأيِّ عقلٍ نضرب عن كتاب الله، ومن ثمَّ نقول: هذا بعيد؟، أبعيدٌ على قدرة الله أم على قُربه وكرمه؟

وفوق هذا يندهش العبد من إعجاز القرآن في جماله، ودقة تصويره، ولا يقف اندهاشه مع جمال بلاغة القرآن فحسب، بل كلما نظر وتأمل في سورة تشوق للسورة التي تليها، وكسب الحرية التي لا أرفع منها ولا أنفع بانتشال الميول المنحرفة من قلبه.

ولقد قلتُ لنفسي عندما انتهيتُ من قراءة معاني سورة البقرة إنها الآن أحبُّ سور القرآن إلى قلبي، وما إن لبثت قليلًا وترفرفت مع سورة آل عمران حتى قلت إنها الأحبّ، وما إن لاَمَستْ روحي باقي السور إلا ووجدتُ لطيفة بيانية، أو قاعدة فقهية، أو حقيقة علمية، أو ظاهرة اجتماعية، فأدركت أنَّ هذا سيكون شأني مع كلِّ سور القرآن، كأنَّ الواحدَ منا بينما يشهدُ مُعجزةَ الله في تلك السور القرآنية، يقولُ بلسانِ حالِه ومَقَاله آخذًا بالأسباب وكأنها كل شيء، مُتوكلًا على الله وكأن الأسباب ليست بشيء: يا ربّ ومعجزتي!

*****

هدية القرب للقرب!

وهذا شأن المؤمن كلما ارتقى درجة من درجات التدبر، ازداد شوقًا لالتقاط كلّ معنى في كتاب محبوبه، فيعتلي درج الصعود المستمر تجاه أحلامه بمعرفة الله، مرتقيًا من علم اليقين إلى عين اليقين، وتاركًا روحه تنهمل بالبكاء والحنين، مُتَأوّهًا مع كل غنّة في تراتيله، فالمحب يسعى بما يزيده من محبوبه حبًّا، وما يدنيه من جلال عظمته قُربًا.

لذلك ينبغي عليك المحافظة على وردك اليومي إن كنت تبغي معية الله في الدنيا والآخرة، فمن أعظم المصائب أن يعلم العبد من نفسه تقصيرًا في تلاوة القرآن ثم لا يبالي بذلك، فتمر به الشهور ولا يفتح فيها كتاب الله! والأعظم من هذا أن يكون المؤمن غافلًا عن القرآن في الوقت الذي تراه مقبلًا على الأغاني في حَلّه وترحاله، ويُشاركها على مواقع السوشيال، وهذا من أسوأ الذنوب وفيه من الجهر بالمعاصي ما لا يعلمه، فكان عليه من الإثم مثل آثام من استمع إلى ما شاركه لا ينقص ذلك من آثامهم شيء!

فقف عن مشاركة الأغاني لمن حولك، ولا تروّج لها لا بإعجاب ولا مشاركة ولا تعليق، فمن أعان الناس على فعل معصية ومهَّد لهم الطريق كأنَّه قد باع آخرته بدنيا غيره وإنَّ هذا لهو الخسران المبين.

وفي هذا المشهد يقول ابن القيم:

«الغناء هو جاسوس القلوب، وسارق المروءة، وسُوسُ العقل، يتغلغل في مكامن القلوب، ويدب إلى محل التخييل، فيثير ما فيه من الهوى والشهوة والسخافة والرقاعة والرعونة والحماقة، فبينما ترى الرجل وعليه سمة الوقار، وبهاء العقل، وبهجة الإيمان، ووقار الإسلام، وحلاوة القرآن، فإذا سمع الغناء ومال إليه نقص عقله، وقل حياؤه، وذهبت مروءته، وفارقه بهاؤه، وتخلى عنه وقاره، وفرح به شيطانه، وشكا إلى الله إيمانه، وثقل عليه قرآنه».

فهذب نفسك مبتعدًا عن ضوضاء العشق والغرام، والحُبّ والهيام، وأكثر من الاستغفار وتلاوة القرآن، فلو علمنا شأن الاستغفار ما فترت ألسنتنا عنه، وأكثر من الإقبال على القرآن، ولا تجعل وردك مقصورًا على التلاوة لا غير، بل اجعل تلاوتك هي عين التدبر، قارئًا تفسير الآيات ومعانيها، وعن أسباب نزولها وينابيعها، وستجد أن هذا الكتاب المعجز أكثر من قرآن يُتلى للتعبد، وذلكم هو نوع البطولة التي تُفيئه علينا تعاليم القرآن، بطولة يقودها العقل لا العاطفة! وأيّما أحدهما تسابق الآخر فلا سبيل إلا النصر!

واعلم يا صديقي: أنه ينبغي على من أحبَّ الله أن يُفَرّغ قلبه من شواغل الدنيا لكي يتدبر القرآن يوميًّا خاشعًا مُتواضعًا لله سبحانه، فالتدّبر روح القرآن وريحانه، وفي هذا يقول المولى جلَّ في علاه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾ [ص: ٢٩].

ولكي يتمكن المرء من تدّبر القرآن عليه أن يُرتل الآيات ترتيلًا، والترتيل من معانيه التمهل، وأن يخرج كل حرف من مخرجه مع إعطائه حقه ومستحقه، وذلك عن طريق معرفة تجويد الحروف كالتفخيم والترقيق، والإدغام والإظهار والإخفاء، وذلك هو علم التجويد؛ تعرف من خلاله كيفية تلاوة القرآن قراءة صحيحة متقنة من غير إسراف ولا تعسف، ولا إفراط ولا تكلف.. ومِن أعظم الحلقات التي أعانتني على فهم علم التجويد بفضل الله هي «سلسة علم التجويد للمبتدئين على اليوتيوب».

لذلك حرَيّ على القارئ أن يتعامل مع كتاب الله بالكرم والإكرام، وهذا ما كان عليه نبينا محمد ﷺ، فكان يقرأ قراءة مُرَتّلَة، لا يمر بآية فيها رحمة إلا سأل، ولا بآية فيها عذاب إلا تعوذ، فيجمع بين القراءة والدعاء والتفكر.

وفي هذا المقام يقول ابن كثير:

«ترك تعلم القرآن وحفظه من هجرانه، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو من هجرانه».

واعلم أنَّه يُسنّ للقارئ أن يُفرِغ وقتًا لورده اليومي قبل أن تنهمل عليه المُلهيات فذلك يُساعده على التزود من كتاب الله، واعلم أن التلذذ بالقرآن إنما يأتي بالمُكابدة والمجاهدة وكثرة الالتجاء والدعاء، ومن ثمَّ تدبر القرآن على الدوام وإن لم يحصل التدبر إلا

بترديد آية واحدة، فالتدبر قرة أعين المحبين، ولهذا يقول الإمام الطبري:

«عجبت لمن يقرأ القرآن وهو لا يعرف معانيه، كيف يلتذ بقراءته؟»

فبالتدبر لكتاب الله نصل إلى حدٍّ أن نفهم لماذا كان هذا القرآن لتُسيَّرَ به الجبالُ أو تُقطَّعَ به الأرض أو يُكلَّمَ به الموتى!!

*****

عيشٌ في ظلال القرآن

ما معنى التعايش؟

أخبرتني والدتي -حفظها الله- أن التعايش هو السكن، أن تجد الحب بعد الإعجاب، والمودة بعد الرحمة، أن تجده سَكَنًا، فإذا غبتَ عنه وجدته ودودًا، وإذا تركتَه وجدته رحيمًا!

وهكذا علاقتنا بكتاب الله، أن تتعايش معه فتجده سكنك، فإذا غِبتَ عنه لم ينسَك، وإذا أُنسيتَه لم يغب عنك!

وهذا التعايش لا بدَّ له من فداء وتضحية، أن تذهب إليه مُجاهدًا لا مُقاتلًا، وحبيبًا لا خصيمًا، أن تترك كل شيء وأنت في حضرته، فلا تكون إلا إذا كان!

وأجمل ما وجدته مُعينًا على تعايشي مع كتاب الله وفهم معانيه برنامج «المصحف الذهبي» على الهاتف المحمول، ولقد انتفعت به انتفاع الأرض الجدباء بماء السماء!

فمع جماله في شرح معاني الآيات وأسباب نزولها تجده بسيطًا إلى حد أنك لتجده مع الأيام والله تفسيرًا عاديًّا، هذا عيشٌ في ظلالِ القرآن بحق وصدق ويقين.. تبحث عن الآية فتجد شرحها ومعانيها وأسباب نزولها بغير الإنترنت وفوق هذا تجد إعرابها، فتقف وتسأل نفسك لماذا جاءت هذه الكلمة منصوبة، فتجد الإعراب المُتاح يُعينك على الفهم والتدبر، والنظر والتأمل، ومع هذا كله تجد

تلاوتها مُتاحة فتُسَهل عليك تلاوتها بالشكل الصحيح ترتيلًا وتجويدًا.

وبين هذا يُعينك على تدّبر القرآن مُستغلًا أوقات فراغك في الطَّريق، والبيت والسَّفر، تفتح برنامج المصحف الذهبي أو أي كتاب للتفسير -المهم أن يكن لك تفسيرًا تقرأه- فتتدبر معاني الآيات مُتأملًا لُطف الله بما يُعينك على استنباط الأحكام والحِكَم، ويدفعك إلى المزيد من اللطائف والعِبَر، فيفتح الله لك بقراءة التفاسير أبوابًا واسعة في العلم والمعرفة، وترى وجه الحق سافرًا مشرقًا في كتابه الكريم فتحيا معه وتزداد توكلًا عليه!

كما أن البرنامج يُوجد عليه تفاسير القرآن مكتوبة في أكثر من تسعة وخمسين كتابًا بدايةً بخواطر الشيخ شعراوي وانتقالًا للإمام الرازي في مفاتيح الغيب ثُمَّ مُرورًا بالإمام القرطبي في الجامع لأحكام القرآن، ثمَّ تفسير القرآن العظيم لابن كثير، وغيره من التفاسير الكبيرة العظيمة التي تأخذ القلوب بعيدًا إلى ملكوت ربِّ السماوات والأراضين.. ويوجد عليه كُتب الأحاديث النبوية مرورًا بصحيح البُخاري ومسلم، ثم سُنن أبي داوود وجامع الترمذي، ووصولا إلى ابن ماجه والنسائي.. فلا تترك فرصةً تُقربك إلى الله في زماننا هذا إلا وقد سلكت طريقًا فيها، فتلتف بك نسائم السعادة وأنسامها إن شاء الله.

فترجّل عن الدنيا وركز انتباهك على الآيات التي تتلوها لأن هذا مِن أعظم ما هو مطلوب منك في الدنيا، فحينما تركز انتباهك تفهم الكثير من آيات الله سبحانه، سائلًا نفسك أسئلة:

لماذا قال الله سبحانه هذا؟

كيف قال هذا هنا وقد قال ذلك هناك؟

فيُسارع القرآن وينفُض عن خواطرك هذه التساؤلات مُشيرًا عليك بتساؤلاتك وخطراتك!

والشيخ الشعراوي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- عِلْمُه عِلْمُك، وعِزُّه عِزُّك، فلتحرص على الاستماع إليه على الدوام، فإن هاهنا قلبًا يتكلم بالقرآن مُرتقيًا بك في ينابيع التلذذ بكتاب الله، ولن يكون حالك بعد السماع كحالك قبلها بتاتًا، يمسك شيخنا بالآية ليفسّرها فلا تغادرها إلا وقد فهمتها واستوعبتها وعرفت لماذا سيقت هنا وما علاقتها بما قبلها وما وجوه البلاغة المتعلقة بها.. فخصص كلّ يوم وقتًا -ولو نصف ساعة- تستمع فيها إلى الشيخ الشعراوي لعلها تكون بداية إشراقك مع القرآن ومصاحبته في الدنيا والآخرة بإذن الله.

ولْنَدعُ الإمام ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- يُكمل لنا بقيّة الحديث عن أصل صلاح القلب، فيقول:

«لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنه يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي

بها فساد القلب وهلاكه فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو يحتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم».

وقال ابن مسعود:

«لاَ تَهُذُّوا القرآن هَذَّ الشِّعر، وَلاَ تَنثُرُوه نَثرَ الدّقَل، وقفُوا عِند عجائبه، وحركوا بِهِ القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة».

*****

ما بعد التعايش!

من رَحِمِ الحبِّ تُوَلد التضحية، هكذا أحبُّ التعايش بالقرآن..

فدائمًا ما يعرض كتاب الله لنا مشاهد السابقين من الأنبياء والصالحين بأبعادها وأعماقها، وصور المنافقين والكاذبين بأحوالهم وأقوالهم، وكأنَّ القرآن يقول لك في كل زمان ثمة فرعون، وفي كل مكان قومٌ كفتية الكهف، وبينهما ثمةَ يونس وثمة حوت.

ويكأننا نُعايش القَصَص القرآنية معايشة صادقة فنجد القرآن يتحدث عن الناس إلى الناس، يتحدث عن جبّارٍ خَسف الله به وبداره الأرض إلى جبّارٍ يريد أن يتكبر على أهل الأرض، ويتحدث عن امرأةٍ قالت ربِّ ابنِ لِي عندك بيت في الجنة إلى امرأةٍ تُحب الله وتحب رسوله.

ويأخذك من الحياة للحياة، يأخذك من قرية جَعَلَ الله عاليها سافلها إلى قرية تُنتَهَكُ فيها حُرمات الله، ومن بلدةٍ طيبةٍ آتاها الله رزقها من كل مكان إلى بيتك وبيوت المسلمين، وفي أقصى المدينة مكان خَرِب يُقام فيه الجدار لغلامين يتيمين في المدينة إلى أماكن خُرِبَت فيها ديارها وانتُهكت حُرماتها، ونمرّ على قرية خاوية على عروشها، وبئرٍ مُعَطَّلَةٍ فلا يُستقى مِنها آبارُهَا، وقصورها العالية لم تدفع عن أهلها سوء عاقبتها إلى المهاجرين الذين أُخرِجُوا من ديارهم وأموالهم بغيرِ حق إلا أن يقولوا ربنا الله!

وبين هذا وذاك، يأخذك القرآن بجولةٍ في سورة يوسف لنرى ألطاف الله بارزةً مهما عظمت الابتلاءات والشدائد، وازدادت مِن حولنا الأخطار والمخاوف، فيوسف عليه السلام أُلقى في الجب، ثم بِيعَ عبدًا، ثم اُتهم ظُلمًا بامرأة العزيز فسُجن، وفي كل زمان ثَمة يوسف مُلقى على الطرقات، وثمة يوسف سُرقَ بيتُه ومالُه، وثمة يوسف سُجن ظلمًا، ولولا لُطف الله لبقى كلُّ يوسف مِنّا بلا حولٍ ولا قوة!

وسرعان ما بَيَّنَ الحق أن ابتلاءات يوسف هي ارتقاءات لارتفاع منزلته؛ فإلقاؤه في الجُبّ في صحراء يابسة كان سببًا في انتقاله إلى مدينة ناعمة، وكان خروجه من الجُبّ منطلقًا إلى قصرٍ فسيح، وبَيعِه عبدًا أوصَله إلى مَلِكًا، ودخوله السجن ظُلما أَجلَسَهُ على عرش المُلكِ عَدلًا! وقد عبر عن ذلك سيدنا يوسف تعبيرًا صادقًا عن منتهى الرضا بقضاء الله وقدره، كما حكى القرآن لنا فقال عليه السلام: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ويتجول بك القرآن إلى أمور قد تراها بعلم اليقين في ظاهرها غير آدمية، وإذا تحسستها بعينِ اليقين وجدتها عينَ الرحمة والخير، فتلك الفتاة التي ماتت في سوريا قد تختفي علينا الحكمة الإلهيّة ولكن نطمئن أن مَرجِعها إلى من لا نرجو الخير إلا مِنه سبحانه، وتلك الأسرة في فلسطين -أعزَّ الله قلوب إخواننا المجاهدين في فلسطين ورزقهم سبحانه الصبر في الدنيا والفردوس الأعلى في الآخرة- تلك الأسرة التي أُذِيت في أهلها، وانتهكت ديارها، قد تختفي علينا الحكمة الإلهيّة ولكن نطمئن إلى أن الله سبحانه

هو من يُديرها حتى وإن كانت في ظاهرها هذه الأمور كارثية، ولكنها تحمل في طيّاتها تَحَرُّكات مَدروسة من الله سبحانه.

فالسفينة كانت ستقع بين يدي ملك ظالم لولا أن ألهم الله سيدنا الخضر فخرقها، والجدار كانَ تحته كنز لغلامين يتيمينِ في المدينة، والغلام الذي قُتل بلا حول مِنه ولا قوة أَدخلهُ الله الجنة، ورزق أبويه طفلًا خيرًا منه زكاةً وأقرَب رُحما! فهي نفوس تُبتلى في زمنٍ فانٍ لتثاب في زمنٍ باقٍ!

وهكذا كل المِحَن بالرغم من ثقلها على النفس إلا أنّها تحمل في طياتها المِنَح، والإنسان العاقل هو من يخوض في الحياة بحلوها ومرّها، يستفيد من ملذاتها في الإبداع، ومن ألمها في النجاح مُزيحًا عن عينية المشاعر الزائفة والعواطف المؤذية.. فأي مِحنة تَمرّ بك مهما كانت مؤلمة، فلا نلتفت بها إلا كتجربة تعلمت منها درسًا من الحياة.

فإن الله يسوق إليك مِحنة ليُعاد تأهيل قلبك بمقامات الإيمان، وتَصِيرُ مِرآةً صافية انعكَس عليها من الحكمة ما يجعلك تُبصر الحياة بصورتها الحقيقية أنَّها فانية وأنَّ الركون الحقيقي إلى الآخرة، فهذه المِحن تَحملك على أن تكون مُعَلِمًا عظيمًا، وحكيمًا قويمًا!

فما مِن مِحن في طريقك إلا وقد وَضَع الله مِنحًا، وما مِن عُسرٍ إلا وحاملًا بين جنبيه اليُسر، وما مِن ابتلاء إلا وسائرًا معه العطاء.. هكذا علَّمَ القرآن أبناءه أن التحديات التي تُقابلهم إنما تُشكّل أبهى فضائل النفس وأروعها، ولقد أضاء الله هذا في القرآن الكريم في

قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ولقد كَتَبَ والدي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في إحدى مُذَكّرَاتِه «قبل الزواج وبعدها» عظيم الخير الذي يُهيئه الله ﷻ للعبد المؤمن حين يمَرّ بِشدة أو جَدب..

ولنترك له الحديث ليُكمل لنا بقيّة النبأ، يقول: «.. وكُنت أَعَمَلُ خطيبًا في بداية حياتي بالمكافأة، وقد شاء الله لي من محبة الناس، وكانوا يحتفون بي في كل مكان حول المسجد، ثم شاء الله أن أَترُك هذا المسجد بعد أن جاء إليه خطيب من الأوقاف، وحَزنت لذلك حُزنًا شديدًا، ولكن سُرعان ما تَذَكَرّتُ قوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦].. واستمر بي الحال شهرين متكاملين وبعد مُدةٍ تَحدث إليّ أحد أقاربي عن مسجدٍ في طلخا يريد خطيبًا فأبيت لسببٍ في نفسي، وبعد أيامٍ أخبرني بمسجدٍ آخر فوافقت دون تَردد، وفي أثناء تَرددي على المسجد التَقيتُ بزوجتي وكنت سعيدًا بخطبتها أشدّ السعادة.. وكأنَّ الله مَا أَخرجني من المسجد القديم إلا لِتحقيق ما تمنيت من التقائي بزوجةٍ حافظة للقرآن الكريم وعلى دراية بأمور دينها ودنياها!».

وهكذا نحن في هذه الحياة نقتصر على رؤية الأسباب الظاهرة ولا نلتفت إلى الغاية الباطنة!

وفي هذا يقول الإمام عليّ:

لاَ تَكْرَهِ المَكْرُوْهَ عِنْدَ نُزُولِهِ.. إن المَكَارِه لم تزل متباينة

كم نعمة لم تستقل بشكرها.. للّه في طَيِّ المَكَارِهِ كامِنَة

وفي هذا المقام يقول ابن القيم:

«من صحّت لهُ معرفة ربهِ والفقه في أسمائهِ وصفاته علمَ يقينًا أنَ المكروهات التي تُصيبه والمِحن التي تنزل به، فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يُحصيها علمه ولا فكرته؛ بل مصلحةُ العبدِ فيما يكره أعظم منها فيما يحب!».

وهكذا القرآن يتجول بنا بين ثناياه نافحًا فينا روح النجاة ويأخذنا من الحياة إلى الحياة، فكأن الواحد مِنا حينما يقرأ القرآن أو يسمعه، يقرأ أطرافَ أفكاره، ويَسمع همسَ ضمائره، ويرى ألطافَ الله بارزةً فيَفرُّ من نفسه المُظلمة إلى نفسه المُشعة، فالمؤمنُ المُدرك لعظمة الله سبحانه تجده يُكثر من التأمل في كتاب الله، ولا تجده سطحيًّا ينظرُ من الظواهر في قشورِها لا غير، وفي ذلك إظهارٌ لكمال العبودية لله الذي لا يخلق شيئًا عبثًا ولا يأمر بشيء عبثًا، وإنما في أمره كله حكمة، فيزداد إيمانًا على إيمانه بعظمة الربِّ الذي يُعبد!

*****

نعيم أهل القرآن في الدارين!

وبجانب أنه يُعيد تأهيل قلبك بمقامات الإحسان يتجول بك القرآن إلى نعيمك في الجنّة، ونعيمك بخالقِ الجنّة، ويطوف بك بين مليارات الخلائق التي تُسَبِّح بحمد ربك، فينزهك في ساحة القدرة الإلهية نزهة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لا تنتهي أنتَ من لذائِذِها، ولا ينتهي مِنك لذائِذُها!

روى الترمذي عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ: «يقال لقارئ القرآن: اقرأ، وارتق، ورتل، كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»

أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، والنسائي في (السنن الكبرى).

فتخيّل أن منزلتك عند الله ترتقي إلى الفردوس الأعلى من الجنة، وما كان منك مزيدَ صيامٍ ولا قيام، إنما بحفظك للقرآن الكريم، وإتقان تلاوته وفهمه كما ينبغي له!

هذه المنزلة تستحق منك أن تلازم كتاب الله ما حييت، فعوَّد قلبك على حُبِّه، وعَلِّمْ نفسك العيش في رحابه مُتأدبًا بآدابه، ومجتهدًا في فهمه وحُسنِ تلاوته، فالخير كل الخير فيه، والنفع كل النفع منه.

وبين هذا ينال القارئ لكتاب الله تشريفًا وتعظيمًا له في الدارين بأن خصه الله من أهله، فمن كان من أهل الله فلا يخاف الضيْعة

فإن الله لا يترك أهله، فإن خيّرَ كلَّ مضاف إليه يأتي على قوة المضاف إليه، فهل هنالك خير أعظم مِن خير الله؟!

وقد روى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ: «إن لله أهلين من الناس، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته».

صحيح ابن ماجه (١٧٩).

كما أن القرآن يأتي شفيعًا ومؤنسًا كما جاء في صحيح مسلم عن نبينا -عليه أزكى السلام-:

«اقْرَؤوا القرآن، فإنه يأتي يومَ القيامةِ شفيعًا لأصحابه».

أخرجه مسلم في صحيحه (٨٠٤).

ولا يخفى علينا الثواب العظيم من الحسنات بتلاوة القرآن وسماعه، فكل حرف في كتاب الله بحسنة، والحسنة بعشرة أمثالها والله يُضاعف لمن يشاء، ومن كرم الله بالمستمع أن حاله كحال القارئ سواء يُشاركه في الحسنات والسكنات، فالقارئ الماهر رفيقًا للملائكة في منازلهم، والذي يتتعتع في تلاوته له أجران، أجرٌ على التلاوة، وأجرٌ على المجاهدة، كما جاء في صحيح البخاري عن رسول الله: «مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة ومثل الذي يقرأ وهو يتعاهده وهو عليه شديد فله أجران».

أخرجه البخاري (٤٩٣٧).

ولكن ههنا أمر ينبغي علينا التفطن له أن القرآن الكريم لا يبث للقارئ جميعَ مَلَكاته إلا بصحبته المستمرة، فالإنسان منا لا يُعطي صاحبه أسراره إلا إذا طالت صحبته، وكذلك بمصاحبة القرآن سيجد تأثيراتُه اللُغويةَ أثرت عليه، بعدما شَرَبَ أسلوبًا من أساليبه، وتشرَّبَ لونًا من ألوانه.

فبصحبتك المستمرة لكتاب الله تتيقن أنه غذاء روحك كإيمانك بأن الطعام والشراب غذاء بدنك، فوردك ليس مجرد ورد يومي وحسب بل هو ثبات للنفس عند المصائب وأُنس للصدر عند الشدائد، وبه تنال البركات والكرامات، فالقرآن يُهذِّب نفسك ويشذِّبها بمشارط الحكمة، ويُبقِي شمعة قلبك مضيئة تنشر أنوارها في الدفاع عن دين الله من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل غيرَ مُبالٍ بما تلقاه من فَقدٍ للنفس والنفيس!

فطوبى لمن صاحبَ كتاب الله فاستنارت جهاته، وأشرقت ساحاته، وتنوَّرت ظلماته، وفاضت روحه شوقًا إلى التَّلَذذِ بنعيم الجنة مِن طعامِها وشرابِها ولباسِها وضيائها وقصورها وأشجارها، والأنهار من فوقها وتحتها، وله فيها من كل الثمرات، وفوق هذا ليس فيها ليل لينام، ولا نهار ليستيقظ، فهو من نعيم إلى نعيم، يتلذذ بِنَعم الله بذات الله..

حتى يَغلِبَه نافح الشوق بَعدما هبَّتْ عليه رياحُ الجنَّة فملأته شوقًا إلى ما هو أعظم من نعيم الجنَّة، وهو التَّلذذِ برؤية خالقِ الجنّة!

نسأل الله أن ينفعنا بالقرآن الكريم، وأن يجعله ربيع قلوبنا، وشفاء صدورنا، إنه سميع قريب مجيب.

(ومن وحي هذه الكلمات جاءت هذه الأبيات)

أَيا مَعشَرَ الإيمانِ ما بالُ رِحالِكُم..
ندعوكم إلى القرآن معَ الجَمعِ أَشمَلَا
حَفَظنَا كِتابَ اللهِ فسقانا اللهُ أجمَعَا..
فيا باحثًا عن السعادة كِتَابَ الله فُصِّلَا

كَفَاكَ مِن القرآن يا حاملَ الشوقِ فُصِّلَا..
شوقٌ بشوقٍ وحُسنُ الأخلاقِ بالقرآن حُصِّلَا
الشمس تُشرق بالأنوار في الصبحِ شَلْشَلَا..
وشمسُ القرآنِ نورٌ على نورٍ وفيصَلَا

نورٌ للأرواحِ بمعرفةِ الله جلَّ جلاله..
وهل تُشرُقُ الأرواح إلَّا بنور الله أَوّلَا؟
يقرأ العبد كُتبًا لا يُلائِمُ أرضهم..
فما بالُ القرآن يا بُنَيَّ لمْ يكُ أوَّلَا؟

لا غيَّبَ اللهُ عن عبده قرآنَه..
هل يأنسُ العبدُ مِنْ غيره مَعْقِلَا؟
يا راميًا قلبه بِسهامِ الدنيا مُجْهَلَا..
سيدقُ قبرُكَ ذاتَ يومٍ سائلٌ أُرْسِلَا

فاجعل نصيبكَ من حبٍّ تُسامِرُهُ..
وحبُّ الله يروي يباسَ القبرِ وعَدَّلَا
النجمُ والشمسُ والأقمارُ مُسبِحَةً..
قد طارَ طيرٌ في السماء مُرَتِلَا

*****

الخاتمة

الحمد لله، وَبعْدُ..

ونحن نُوَدِّع نسائم سعادتنا، أرجو من الله أن تكون قد عَرَفت شيئًا يسيرًا من إقبالنا على الله.. فعليك أن تتزوّد بمعرفة المزيد عن الصلاة والذكر وقراءة القرآن، وأن تجعلها نبراس حياتك، ونور بصيرتك.

فهذا الدين الحنيف جاء ليسوس الوازع الداخلي في القلوب، ذاك الوازع الذي يجعل من الإنسان إنسانًا، فيعمل بالآداب، ويلتزم بالأخلاق، ويترعرع بالإخلاص، وينمو بالصلاح، ويسمو بنفسه عن العادات الممقوتة، وينشأ مكانها إنسان يتعامل مع النظافة على أنها من الإتقان، ومِن الطهور على أنه شطر الإيمان.

واعلم: أنّ الآخرة هي الدار، هي الأبد، هي المستقر، وأن الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترَح لا منزل فرح، وما أهل الدنيا في شتى العصور والأزمان إلا سائرون فوق جسر، كلما انتهى من عبوره قوم وجدوا أنفسهم أمام دار القرار إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار، فأحسن الرحلة وخذ ما ينفعك من ممرك إلى مقرك، وصاحب مَن يُعينك على عبور الجسر، وأحسن اختيار الرفيق الذي يحملك على أَلا تهتك أستارك عند من لا تخفى عليه أسرارك، ولا تصحب معك في رحلتك من لا يُنهضك حاله، ولا يدلّك على الله مقاله.

وأكثر من القراءة يا صديقي، فالقراءة وحدها بعد فضل الله تصنع الفارق في كل شيء، وتجعل النفوس تتهلل في أعماقها، والأرواح تشتعل في مكانٍ ناءٍ بداخلها، فالقراءة لا تعد هواية، ولكنها من ثوابت الحياة.. ولا تنسَ أن تجعل سفينتك تقوى الله، وتقواك التوكل عليه، فبقدر ما تزرعه في الدنيا ستحصده في الآخرة، فأصلح الزرع وداوم على سُقياه حتى تجد ثمار سعيِّكَ واضحة جلّية إن شاء الله.

واعلم: مَنْ ضَيّع صلاته خاب سعيه وخابت تجارته وقَطع الحبل الذي بينه وبين ربه، فلا هو صادق في حبه مع الله ولا هو صادق مع نفسه.. ومَن أضاع قرآنه هَلَكَ ونَدَمَ على قدر ما تتقطع منها القلوب حزنًا، وتتصدع منها الأفئدة أسفًا!

ومَن اشترى الدنيا بآخرته فلبئس البَيعةُ القاحلة، ومن ابتاع الدنيا وسعى إلى آخرته فبَخٍ بَخٍ لقلبه ما أعظم بيعته!

ولي رجاء: لقد كتبت لك في هذا الكتاب ما يُمليه عليه ضميري، فإن ساعدك على معرفة الله، فلا تنسَ والدتي من دعائك، فمن نعيم الدنيا الذي كان لي أنها كانت والدتي.

ولقد كانت هذه خواطري حول **نسائم السعادة** بما أُجاهد عليها نفسي محبة في الله، وتحدثت معكم بالموعظة التي أجاهد قلبي عليها خوفًا من الله، ولستُ بخيركم ولا أمثلكم هديًا ولكنَّ

عفو الله أعظمُ، ونرجو من الله أن يرحمنا ويهدينا سواء السبيل، وأن يتقبله منّا خالصًا لوجهه الكريم.

هذا.. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد عدد ما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون صلاة دائمة إلى يوم الدين.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ممدوح حسب الله

تم بحمد الله.

نبذة عن الكاتب

- يدرس بالسنة الأخيرة بكلية الهندسة جامعة المنصورة قسم طبية وحيوية.
- حاصل على شهادات في حفظ القرآن الكريم، وفي التفسير وعلم الحديث.

للتواصل مع الكاتب

- https://www.facebook.com/mamdoh.hasballa
- https://instagram.com/mamdoh_hasballa
- https://instagram.com/thikr_alllah

تم بحمد الله